

ترجمة . فوزية المشماوي

صمويل بيكيت

الحب الأول  
والصحبة



94



**\*\* معرفتي \*\***

[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)

**منتديات مجلة الإبتسامة**

المشروع القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

صمويل بيكيت

الحب الأول

والصحبة

ترجمة . فوزية الحشماوي



١٩٩٩

( النص الأصلي باللغة الإنجليزية طبع عام ١٩٨٠ )  
وقام المؤلف صمويل بيكيت بترجمته بنفسه إلى اللغة الفرنسية )  
ونشر في مطبوعات منوى بباريس تحت اسم

COMPAGNIE (1980)

Editions de Minwit - Paris

France

الحب الأول



هذه الرواية القصيرة تندرج تحت ما يطلق عليه أدب اللا معقول ، وكذلك الأدب السورياتى والرواية الجديدة . وهذه الأطر تجعلنا أكثر حىطة عندما نقرأ هذه الرواية لنتقبل ما تحتوىه من بعض المفاهىم الخارجة عن معتقداتنا وتقالىدنا ومفاهىمنا الأخلاقىة والدىنىة .

ربما وجب تحذىر القارىء عند نشر ترجمة هذه الرواية بأن المؤلف يلجأ إلى المفارقات اللامعقولة لىؤكد على "لا معقولىة" المفاهىم التى نعىش بها فى الحىاة نون أن نفهم أسبابها أو مبرراتها ، لأنها أحياناً لا يكون لها أسباب معقولة .

والرواية تحكى مفارقات حىاة إنسان بسىط وربما يكون متخلفاً عقلىاً أو - على الأقل - معوقاً . لأن والده كان يحمىه أو ىرعاها قبل وفاته : "طالما أنه لم ىكن يؤذى أحداً" وكان الوالد ىطلب من بقىة أهل البىت " أن ىتركوه فى غرفته ولا ىطردوه من البىت" ولكن بعد وفاة الأب طرد أهل البىت الشاب من بىته ، فهام على وجهه ووجد المأوى فى غابة فوق دكة خشبىة ، ولكن جاءت امرأة تزعجه وتشاركه فى الدكة ، تركها لها وذهب لىعىش فى "زرىبة" قذرة وأصبع ىنام فوق الوحل وروث البقر ولكنه شعر بالحب لأول مرة وأخذ ىكتب اسم المرأة التى التقى بها فوق الدكة فى الغابة - على روث البقر فى "الزرىبة" . وعاد ىبحث عنها فوق الدكة وكانت المرأة فى انتظاره ، وأخذته معها إلى بىتها . وبعد أن سكن معها فى بىتها أخبرته أنها حامل فى شهرها الخامس ، وأنه والد الجنىن . ولكن الشاب اكتشف أنها تستقبل زبائن فى بىتها وأنها تعىش من الدعارة ، فعزم على ترك البىت بالرغم من عدم وجود مأوى آخر له .

ويوم أن جاءها المخاض لم يطق صرخات الولادة فهرب من البيت وهي  
تلد بينما صرخاتها تلاحقه وظلت تلاحقه طول العمر" .

الكاتب لجأ إلى أسلوب السرد بتيار الوعي وبضمير المتكلم ، ولكنه  
يوجه الخطاب والحديث إلى القارئ وأحياناً كثيرة يخرج من إطار السرد  
ويدخل في نقاش مع القارئ في موضوع لا يمت للرواية بصلة.

وتعتبر هذه الرواية من أروع ما كتب صمويل بيكيت قبل حصوله على

جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٩

د . فوزية العشماوى

## صمويل بيكيت (١٩٠٦ - ١٩٨٩)

ولد صمويل بيكيت عام ١٩٠٦ فى دبلن بأيرلندا وتوفى عام ١٩٨٩ فى باريس . وهو من أصل إيرلندى ، وإن كان عشق فرنسا واستقر فى باريس منذ عام ١٩٢٧ وحتى وفاته عام ١٩٨٩ .

نبغ صمويل بيكيت فى دراسة اللغات وحصل عام ١٩٢٧ وهو فى العشرين من عمره على درجة الليسانس فى اللغة الفرنسية التى أجادها لدرجة أنه كتب معظم رواياته وقصصه ومسرحياته باللغة الفرنسية بالرغم من أن لغته الأم هى الأيرلندية ، ولغته الأولى هى الإنجليزية . ويعتبر صمويل بيكيت من أشهر وأكبر أدباء القرن العشرين وقد حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٩

ويعتبر صمويل بيكيت من الأدباء القلائل الذين يكتبون بلغتين فى آن واحد ، فقد كتب معظم مؤلفاته باللغتين الإنجليزية والفرنسية حيث كان يكتب النسخة الأصلية بالفرنسية ثم يقوم بترجمتها إلى الإنجليزية أو العكس ، أى يكتب الأصل بالإنجليزية ثم يترجمه إلى الفرنسية ، وأحيانا كان يترك الترجمة لبعض المقربين منه .

اشتهر صمويل بيكيت بمسرحياته ولعل أشهر مسرحية له هى «فى انتظار غوبو» (١٩٥٣) وبالرغم من أنها أولى مسرحياته إلا أنها حققت نجاحاً منقطع النظير ما تزال حتى الآن من أشهر المسرحيات وأكثرها تقبلاً ومشاهدة من الجمهور فى باريس وغيرها من العواصم الأوروبية . وقد كتبها بيكيت باللغة الفرنسية وترجمت لكثير من اللغات وبالرغم من



أن الشخصيات المسرحية رجال ونساء من لحم ودم ، إلا أنهم مخلوقات غريبة ، يتحركون ببطء وكأنهم يسبحون فى عالم كله غموض وصمت وانتظار وقلق وضغط نفسى ومعنوى ، يتكلمون بحساب وبدقة ولغتهم لغة فلسفية ونظرتهم للحياة سوداوية ، وحرزتهم وغموضهم وانتظارهم المستمر بلا سبب مثلما الحال فى مسرحية "فى انتظار غودو" ، حيث ينتظر البطلان شخص ثالث غامض وغريب يطلقون عليه اسم "غودو" ويطول انتظارهم حتى نهاية المسرحية دون أن يأتى "غودو" ، ولاشئ فى المسرحية يبرر سبب هذا الانتظار الطويل أو يحدد شخصية أو معالم ما ينتظرونه . وكلمة "غودو" قد تكون تحريفاً للكلمة الإنجليزية "God" أى الرب أو الإله أو المعبود أى أن ترجمة المسرحية أو عنوانها هو "فى انتظار الرب" ، ربما معنى "غودو" أيضاً هو الشئ الذى لا يمكن العثور عليه وربما يكون "ذات كل إنسان" .

وقد ابتدع بيكيت بهذه المسرحية رحلات البحث عن المجهول التى حاول كثير من الأدباء من بعده استخدام نفس المنهاج فى البحث عن شخصية أسطورية أو خيالية رمزية ، وينتهى العمل الأدبى أو الرواية دون العثور على المطلوب ، مثلما فعل أديبنا الكبير نجيب محفوظ فى رواية "الطريق" وفى قصة "زعبلاوى" .

أما روايات وقصص صمويل بيكيت فهى أيضاً تدور فى الفلك نفسه الرمضى اللا معقول ابتداء من رواية مورفى (١٩٢٨) بالإنجليزية وترجمتها الفرنسية (١٩٤٧) وهى أيضاً تدور حول رحلة البحث عن المفقود ، والمفقود فى هذه الرواية هو صدر الأم الذى يحاول المؤلف من

خلال البطل العثور عليه أو العودة إليه بالرغم من أن العودة إلى ثدى  
الأم شيء مستحيل بالنسبة لإنسان بلغ مبلغ الشباب والنضج . وفى  
رواية "موللى" (١٩٥١) باللغة الفرنسية ، تبحث البطلة "موللى" ذات  
الشخصية المزوجة عن وجهها الآخر أو قرينتها "موران" وهى  
تبحث دائماً عن أمها وتثور فى حلقة مفرغة دون أن تعثر فى النهاية على  
الأم المفقودة .

وفى رواية "الحب الأول" (١٩٧٠) بالفرنسية يبحث البطل عن الصلة  
بين الموت والحب أو بين المقابر والزواج . والملا معقول عند بيكيت هو تلك  
التنائيات اللامعقولة وغير المتوقعة التى يلجأ إليها ليبرهن للقارئ أن  
العالم من حولنا لا معقول ، ولا توجد أسباب لما يحدث حولنا ؛ لذا  
أطلق النقاد على عالم بيكيت "اللا سببية" أو عالم ضد السببية "ANTI  
- CAUSLITÉ"

د . فوزية العشماوى

## صمويل بيكيت (١٩٠٦ - ١٩٨٩)

### الحب الأول

(١٩٧٠)

يختلط في ذهني دائماً تاريخ زواجي مع تاريخ وفاة أبي دون أن أدرك إذا كان ذلك صحيحاً أم غير صحيح . وربما يكون هناك صلة أخرى وعلى مستوى آخر بين هذين الحدثين فمن الصعب عليّ أن أقول ما أعتقد أنني أعرفه .

ذهبت لزيارة قبر أبي مؤخراً ، أعرف ذلك ، لأنني كتبت تاريخ وفاته ، تاريخ وفاته فقط لأن تاريخ ميلاده لم يكن يهمني في شيء في ذلك اليوم . ولقد ذهبت للزيارة في الصباح وعدت آخر النهار وتناولت غذائي بين المقابر . ولكن بعد مرور عدة أيام على تلك الزيارة اضطررت للعودة أمام القبر ، لأنني كنت أرغب في معرفة كم كان عمره حين مات لذا عدت لأكتب تاريخ ميلاده . ولقد كتبت التاريخين ، حدود الحياة ، في ورقة صغيرة أحفظ بها أمانى .

وهكذا أصبح بمقدوري أن أؤكد أنني كنت في حوالى الخامسة والعشرين عند زواجي . أما تاريخ ميلادي ، أقول تاريخ ميلادي أنا فإنني لم أنساه أبداً ولم أضطر أبداً أن أكتبه لأتذكره لأنه تاريخ محفور في ذاكرتي تماماً مثل التاريخ المحفور على المسكوكات وقطع النقد : أرقام ، ولكنها أرقام لن تستطيع الحياة أن تمحوها . أتذكر ليس فقط عام ميلادي ولكن أيضاً يوم ميلادي ، بمجهود بسيط أتذكر تاريخ اليوم ،

وأحتفل به أحيانا كثيرة بطريقتى الخاصة ولا أقول فى كل مرة يعود ،  
كَلَّا ، لأنه يعود كثيراً جداً ، ولكن أحيانا فقط أحتفل به .

أنا شخصياً ليس عندى ما أقوله ضد المقابر فأنا أتنزه بينها على  
سجيتى أكثر من أى مكان آخر على ما أظن حين أضطر للخروج . ولا  
تزعجنى إطلاقاً رائحة الجثث التى أشمها وتفوح من تحت العشب  
والتراب . رائحة فيها طعم السكر ، سكر زيادة ، رائحة فيها إلحاح  
ولكنها أفضل بكثير من رائحة الأحياء ، رائحة الأبطين والقدمين  
والمؤخرة وقلبة الذكر اللامعة والبويضات التائهة .

وحين تمتزج رفات جثة أبى وتنصهر فى هذه الرائحة بنسبة ما ،  
مهما كانت متواضعة ، فإن الدموع تكاد تملأ عينى ومهما حاول الأحياء  
وبالرغم من الاستحمام والتعطر فإن رائحتهم عفنة .

نعم حين نضطر للخروج للتريض اتركوا لى المقابر وانهبوا أنتم  
للتريض فى الحدائق العامة أو فى الريف . فأنا أستطعم أكثر  
السندوتش أو الموزة حين أكلها وأنا جالس على أحد القبور وإذا أخذتني  
الرغبة للتبول ، وكثيراً ما تأخذنى ، فأمامى حرية الاختيار . أتجول بين  
المقابر وذراعى خلف ظهري ، أنظر إلى الأحجار القائمة ، الطويلة  
والنائمة والمائلة ، وأمس الكتابة المنقوشة على النُصب وأدور حولها مثل  
النحلة . لم تصدمنى أبداً الكتابات المنقوشة وهناك ثلاثة وأربعة دائماً  
فيها شىء من الغرابة والسخرية المضحكة حتى أننى أضطر أحيانا أن  
أستند على الشاهد أو الصليب أو تمثال الملاك حتى لا أقع من شدة  
الضحك .

أما النقوشات التي سأكتبها على نُصبِ قبري فقد ألفتها منذ زمن بعيد وأنا سعيد بها وراضٍ عنها ، أما كتاباتي الأخرى فإنني أشعر بالاشمئزاز منها بمجرد الانتهاء من كتابتها وحتى قبل أن يجف الحبر الذي كتبتها به ، أما نُصبِي فإن نقوشاته تعجبني دائماً . إنها تعتبر تشريفاً لقواعد اللغة . ولكن للأسف قد لا ترتفع أبداً فوق الجمجمة التي صاغتها إلا إذا تكفلت الدولة بذلك . ولكن إخراجي من قبري لن يكون بالأمر السهل فيجب العثور علىّ أولاً ، وأشد ما أخشاه هو أن تجد الدولة نفس الصعوبة في العثور علىّ حياً أو ميتاً ؛ لذا فإنني أسارع بتثبيت هذه النقوشات على نُصبِي قبل أن يفوت الأوان .

هنا يرقد من أفلت منه مراراً

والذي لم يفلت منه إلى الآن

توجد كلمة زائدة في المقطع الثاني من بيت الشعر هذا ، ولكن ليس لذلك أية أهمية في رأيي . سوف أسامح بسبب أشياء أكبر من ذلك بكثير عندما أرحل عن هذا العالم .

أثناء التجول فيما بين القبور نشاهد أحيانا جنازة حقيقية ودفن حقيقي في وجود الأحياء المحزونين ، وأحيانا توجد أرملة تريد أن ترمى نفسها في حفرة القبر . وفي أغلب الأحيان تتكرر نفس الحكاية الطوة مع التراب ، بالرغم من أنني لاحظت أن هذه الحفر تكون دائماً قليلة التراب لأن التربة تكون دائماً ندية ولزجة وكذلك جثة الميت لا يبدو عليها أنها قابلة للتفتت إلا إذا كان الميت قد مات محترقاً وتفحمت جثته .  
إنها لجميلة حقاً تلك الكوميديا مع التراب .

أما المقبرة التي دفن فيها أبى فإننى لم أكن متعلقاً بها بالذات ، فقد كانت بعيدة جداً فى قلب الريف وتقع على حافة ربوة صغيرة جداً . وكانت المقابر مكتظة ولاينقصها سوى بعض الأرامل من النساء لتصبح كاملة العدد . كنت أفضل أكثر مقابر "أوهولدرف" ، خاصة ناحية "لين" فى أراضٍ بروسيا ، حيث تمتد المقابر على مساحة أربعمائة هكتار مكتظة بالجثث المدفونة ، بالرغم من أننى لم أكن أعرف أحداً منهم فيما عدا مروض الوحوش المشهور "هاجنباك" ، حيث يوجد أسد محفور على نُصبه على ما أظن . ويبدو أن الموت كان له وجه أسد بالنسبة له وكانت الحافلات فى رواحها وغدوها تمتلأ بالأرامل من الرجال والنساء وكذلك بالأيتام الذين يجدون السلوى وينسون أحزانهم وسط أشجار الغابات وكذلك المغارات الصغيرة وجداول المياه التي تسبح فيها بعض البجعات . كان ذلك فى شهر ديسمبر ولم أشعر فى حياتى بالبرد مثلما شعرت فى ذلك الحين حتى شورية السمك لم أستطع أن أبتلعها وخشيت أن أموت فتوقفت لأتقياً ، وكنت أحسدهم جميعاً .

لأنتقل الآن إلى حديث أقل حزناً : لقد اضطررت إلى مغادرة البيت بعد وفاة أبى . كان هو الذى يريدنى أن أبقى فى البيت فقد كان رجلاً غريب الأطوار . قال لهم يوماً " اتركوه طالما أنه لا يضايق أحداً" ولم يكن يعرف أننى أسمع . ربما كرر هذه الفكرة عدة مرات ولكنى لم أكن متواجداً فى تلك المرات الأخرى . لم يوافقوا أبداً أن يجعلونى أرى وصيته ولكنهم قالوا لى فقط أنه ترك لى مالاً كثيراً . وظننت أيامها ، وما أزال أعتقد ذلك حتى الآن ، أنه طلب منهم فى وصيته ، أن يتركونى

فى الغرفة التى كنت أقىم فىها وهو ما يزال على قىد الحىاة وأن  
ىحضروا لى الطعام مثلما كانوا يفعلون فى الماضى . وأعتقد أن ذلك  
كان شرطاً أساسياً لتنفيذ بقىة بنود الوصىة . أعتقد أنه كان ىجب  
وجودى فى البىت وىشعر به وإلا لما كان ىعترض على طردى من البىت .  
وربما كان ىشعر فقط بالشفقة نحوى . ولكنى لا أعتقد ذلك ، وكان ىجب  
علىه أن ىوصى لى بالبىت كله وبذلك أكون مرتاحاً والآخرىن أيضاً لأننى  
كنت سأقول لهم حتما :

" ابقوا معى فإن البىت بىتكم !"

كان البىت بىتا ضخماً .

نعم ، لقد خدعوا أبى المسكىن إذ كانت نىته حقىقة هى الاستمرار  
فى حماىتى حتى بعد دفنه فى القبر .

أما بالنسبة للمال فالحق ىقال أنهم أعطوه لى على الفور ، صباح يوم  
الدفن ، ربما لم ىكن فى وسعهم إلا أن ىفعلوا ذلك . لقد قلت لهم حىنئذ  
احتفظوا بهذا المال لكم ودعونى أستمر فى المعىشة فى تلك الغرفة مثلما  
كان الحال فى حىاة أبى ، وأضفت " لتصعد روحه إلى السماء " وكلى أمل  
أن أرضىهم وأدخل السرور على قلوبهم ولكنهم لم ىوافقوا وعرضت  
علىهم أن أكون رهن إشارتهم وأتكفل بالعناية بالبىت وأقوم ببعض  
الأعمال الضرورىة لصىانة البىت لبضعة ساعات فى اليوم ، تلك الأعمال  
التى لا بد منها لكل بىت حتى لا ىتحول إلى تراب . عرضت علىهم أن  
أقوم بتلك الأشغال البسىطة طالما أن ذلك كان ممكناً ، عرضت علىهم أن  
أعتنى على الأخص بالمشاتل الساخنة حىث كان بإمكانى أن أمضى

بداخلها ثلاث أو أربع ساعات يومياً وسط الحرارة لأرعى الطماطم  
وزهور القرنفل والزهور الزنبقية وبراعم الزهور .

ولم يكن فى ذلك البيت أحد يفهم الطماطم إلا أنا وأبى .

ولكنهم لم يوافقوا على اقتراحى . وذات يوم بعد خروجى من دورة  
المياة وجدت باب غرفتى مغلقاً بالمفتاح وجميع محتويات الغرفة الخاصة  
بى ملقاة فى كومة أمام باب الغرفة . وهذا يدل على أننى كنت أعانى من  
الإمساك الشديد فى ذلك الوقت .

كان القلق هو السبب فى ذلك الإمساك الشديد على ما أظن ولكن هل  
كنت حقيقة مصاباً بالإمساك ؟ لا أعتقد ذلك . قليل من الهدوء ، ومع ذلك  
فمن الأرجح أننى كنت بالفعل أعانى من الإمساك ، وإلا ما هو تفسير  
تلك الساعات الطويلة الرهيبة التى كنت أقضيها فى المراض ودورات  
المياه ؟ لم أكن أقرأ خلالها أبداً لا فى هذه الأماكن أو حتى خارجها ، لم  
أكن أحلم أو أفكر بل كنت أحملق فى النتيجة المعلقة فى مسمار فى  
الحائط أمامى ، وكانت عليها صورة لشاب ملتج تحيط به الخراف  
من كل جانب ، وهو المسيح على الأرجح . الإمساك الشديد يجعلنى  
أمسك بأردافى وأبعدها عن بعضها وأحزق بقوة: "آه ... هيه ...  
واحد ... اثنين ... هيه ! "،أتى بحركات مثل الذى يجدف وسط الأمواج ،  
وبعد ذلك كنت فى حاجة شديدة للعودة إلى غرفتى للاستلقاء فوق سريرى .

كان ذلك إمساكاً بكل تأكيد ، أليس كذلك ؟ أو أننى أخلط بين  
الإمساك والإسهال ؟ كل شىء مختلط فى رأسى : المقابر والزفاف  
والأنواع المختلفة من البراز .



كانت حاجياتى قليلة فوضعوها فى حزمة على الأرض أمام باب الغرفة وما زلت أرى أمامى تلك الحزمة الصغيرة وسط ظلام الممر أمام غرفتى . واضطرت أن أبدل ملابسى وأنا واقف فى هذا الممر الضيق نى الجدران الثلاث ، أعنى بذلك أننى خلعت جلباب نومى ورداء البيت وارتديت ملابس الخروج وأعنى بذلك الجورب والحذاء والسروال والقميص والسترة والمعطف والقبعة ، وأرجو ألا أكون قد نسيت شيئاً .

حاولت أن أفتح أى باب آخر قبل مغادرة البيت فأدرت مقبض عدة أبواب ولكن لم ينقاد لى أى مقبض ولم أفتح أى باب وأظن لو أننى وجدت أية غرفة مفتوحة لاحتميت فيها ولرفضت أن أخرج منها ولما استطاعوا إخراجى منها إلا بالغاز .

كنت أشعر أن البيت مكتظ بالناس - كالعادة - ولكنى لم أر أحداً . وأعتقد أنهم جميعاً اختبأوا فى غرفهم ، وأذانهم صاغية يترقبون ما سيحدث . ثم هرعوا جميعاً وراء النوافذ ، محتمين وراء الستائر ، بمجرد أن سمعوا صوت باب البيت الخارجى وهو يغلق خلفى ، كان الأجدربى أن أترك الباب مفتوحاً .

ثم انفتحت الأبواب وخرج الجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً . كل خرج من غرفته وتعالى الأصوات والتنهدات والضحكات والأيدى والمفاتيح فى الأيدى ، وتنفسوا الصعداء ! ثم استعادوا الأوامر ، فى حالة كذا يصير الأمر هكذا وفى حالة ما إذا كان الأمر كذلك إذن فهكذا ، جو فرح وعيد ، كل فهم ما عليه أن يفعل . والآن هيا نتناول الطعام ، فالغرفة ستنتظر

حتى نفرغ من طعامنا . كل هذا من نسيج خيالى بالطبع ، لأننى لم أكن هناك معهم .

ربما جرى الأمر بطريقة مختلفة ولكن ما أهمية ذلك ، ما أهمية الطريقة التى تجرى بها الأمور طالما أنها جرت ؟

وما بال كل هذه الشفاه التى قبلتنى وكل هذه القلوب التى أحببتنى (إن الناس تحب بقلوبها أليس كذلك أم أننى أخلط القلوب بأشياء أخرى؟) وكل هذه الأيدي التى لعبت مع يدي وكل هذه العقول التى كادت تتملكنى !

إن الناس بالفعل غريبو الأطوار ! مسكين أبى ! كان سيتضايق بشدة لو أنه رآنى فى ذلك اليوم ، لو أنه استطاع رؤيتى لتضايق من أجلي ، هذا ما قصدت قوله . وبالرغم من أن جثته لم تكن قد تحللت بعد إلا أنه وفى ظل حكمة فصل الروح عن الجسد ، لم يعد يرى أبعد مما يرى ابنه .

ولكن من أجل تغيير الموضوع والخوض فى حديث أكثر مرحاً فإن اسم المرأة التى ارتبطت بها بعد ذلك بقليل ، اسمها الصغير كان لولو ، هذا ما أكدته لى - على الأقل - ولا أجد مبرراً يجعلها تكذب على بهذا الخصوص . وبما أنها لم تكن فرنسية فقد كانت تنطق اسمها لولو وبما أننى أيضاً لم أكن فرنسياً فإننى كنت انطق اسمها كما تنطقه هى أى لولو . نحن الاثنين إذن كنا ننطق اسمها لولو .

وقد أخبرتنى أيضاً بلقب أسرتها ولكنى نسيته ، كان من الأجدربى أن أدونه على ورقة صغيرة لأنى لا أحب أن أنسى أسماء العلم .

تعرفت عليها على أحد المقاعد على ضفاف الجدول ، أحد الجداول لأن مدينتنا بها جدولان ولكنى لم أعرف أبداً أن أفرق بينهما . كان المقعد عبارة عن دكة ذات موقع ممتاز تستند على كومة من الطين والنفائات المجففة التى كانت تلتصق بمؤخرتى وكذلك بظهرى أو الأجزاء السفلى من ظهرى وكانت هناك شجرتين ضخمتين تستند الدكة عليهما بالرغم من أنهما كانتا قد فارقتا الحياة . وأعتقد أن فكرة وضع الدكة فى هذا المكان بالذات قد خطرت لشخص ما عندما وجد هاتين الشجرتين وارفتى الظلال بفروعهما وأوراقهما الكثيفة . وأمام الدكة وعلى بعد عدة أمتار تجرى القناة ، إذا كانت القنوات تجرى ، وأنا شخصياً لا أعرف . من هذه الجهة إذن لم أكن معرّضاً لأن أفاجأ بظهور أحد فجأة . ومع ذلك لقد فاجأتنى .

كنت مستلقياً على الدكة والجو جميل وأنا أنظر إلى فتحة السماء من خلال الفروع غير المورقة للشجرتين والممتدة فوق رأسى بينما السحب القليلة غير المستمرة تروح وتأتى فى هذا الركن من السماء .  
قالت " أفسح لى مكاناً " .

أول ما خطر لى أن أفعله هو الانصراف ولكن التعب وعدم معرفة أى مكان يمكن أن أذهب إليه منعانى من مطاوعة هذا الخاطر ، فما كان إلا أننى لمت ساقى تحت جسدى ، فجلست هى . ولم يحدث بيننا أى شىء فى ذلك المساء ، لأنها انصرفت بعد ذلك بقليل دون أن توجه لى الحديث . ولكنها اكتفت بالغناء أو بالدندنة لنفسها . وبدون كلمات لحسن الحظ ، دندنت بعض الأغنيات القديمة المعروفة فى هذا البلد . كانت

دندنتها متقطعة بأسلوب عجيب إذ أنها كانت تقطع الأغنية فجأة وتبدأ  
فى أغنية أخرى ثم تعود فجأة إلى الأغنية الأولى حيث تكمل المقطع الذى  
قطعته بسبب الأغنية الثانية التى فضلتها على الأولى .

وشعرت بتلك النفس المليئة بالملل والتى لا تكمل أى شىء ولكنها ربما  
تكون أقل النفوس إزعاجاً للآخرين . حتى الدكة ملّتها سريعاً ، أما أنا  
فقد اكتفت بإلقاء نظرة سريعة إلى ولكنها فى الحقيقة كانت امرأة عنيدة  
ومتشبهة برأيها لأنها عادت فى اليوم التالى واليوم الذى يليه وجرت  
الأمور تقريباً مثلاً حدث أول مرة ، ربما تبادلنا بضع كلمات لا أكثر .  
وفى اليوم التالى هطل المطر واعتقدت أن ذلك سيجعلنى أنعم بالهدوء  
ولكنى كنت مخطئاً فى تقديرى . وسألتها إذا كان فى نيتها أن تأتى  
لتزعجنى كل مساء .

فقالت : أنا أزعجك ؟

وبالطبع كانت تنظر ناحيتى ولكنها لم تر شيئاً يذكر سوى جفنين  
وربما جزء من أنفى ومن جبينى بسبب الظلام المحيط بالمكان .  
وأضافت :

- كنت أظن أننا ننعم بالراحة معاً .

فقلت لها :

- إنك تزعجينى ، لأننى لا أستطيع أن أمدد ساقى وأنت هنا .

كنت أتكلم من وراء ياقة معطفى ومع ذلك سمعتنى فقالت :

- أ إلى هذا الحد تحب الاستلقاء ؟

غلطة وإساءة للنفس توجيه الحديث للآخرين . سرعان ما أضافت :

- ما عليك ، ضع قدميك فوق حجرى .

ولم أتردد . وشعرت بفخديها المستديرين تحت قدمى المسكينتين وأخذت هى تمسح بيدها عرقوب قدمى ، وخطر على بالى أن أضربها بكعب رجلى فى فرجها .

أحدثها عن الاستلقاء فلا ترى سوى جسدى الممدد ! إن ما كان يشغلنى أنا ، كملك بلا رعايا ، هو الاستلقاء العقلى . وما كان استلقائى الجسدى إلا انعكاساً من تلك الانعكاسات التافهة والبعيدة التى يأخذها الغلاف الخارجى لفكرة الأنا ولتلك السفاسف المسمومة للفكرة التى يطلقون عليها ال "لا أنا" وحتى للعالم كله من شدة الكسل .

ولكن فى الخامسة والعشرين ينتصب الذكر بسهولة ، حتى الرجل المتحضر أيضاً من وقت لآخر لا يستطيع أن يمنع جسده من ذلك ، وهذا نصيب كل واحد منا حتى إن لم يكن بمقدورى أن أقطعه أو أمنعه من أن ينتصب إذا كان ذلك بالفعل انتصاباً .

وقد لاحظت هى ذلك بطبيعة الحال فالنساء يلمحن عضو الذكورة من على بعد عشرة كيلو مترات ومع ذلك يتساءلن : كيف استطاع هذا الذكر أن يلمحنى عن بعد ؟

لا يتمالك الشخص نفسه فى مثل هذه الظروف أو بالأحرى لا يعثر على نفسه وصعب جداً على النفس ألا تجد نفسها ، والأكثر صعوبة أن تكون وتوجد بالرغم من كل ما يقال . فعندما تجد النفس نفسها تعرف ما عليها أن تفعله أما عندما لا تجد نفسها فإنها تصبح أى شخص ولا يكون هناك مجال للتلاشى .

إن ما يسمونه الحب هو المنفى ، من وقت لآخر ، وصول كارت  
معايدة من البلد ، ذلك كان شعورى فى هذا المساء .  
وعندما فرغت هى واستطعت أنا أن أروض النفس لتستعيد نفسها  
بعد برهة قصيرة من اللوعى ، وجدت نفسى وحيداً .  
إننى أتساءل إذا لم يكن كل ذلك من اختراعى ، إذا لم تكن الأمور  
قد جرت بطريقة أخرى وطبقاً لرسم آخر تناسيته . وبالرغم من ذلك فإن  
صورتها هى ظلت ملتصقة بالدكة ، دكة المساء وليس دكة الليل ، بحيث  
إننى حين أتكلم عن الدكة كما تبدو لى فى المساء إنما أتكلم عنها هى .  
ولكن هذا لا يدل على شىء ، ولكنى لا أبحث عن دليل .  
أما عن دكة النهار فلا داعى للحديث عنها ، لأننى لم أكن أجلس على  
الدكة نهاراً بل كنت أغادرها مبكراً ولا أعود إليها إلا بعد العصر .  
نعم ، كنت أذهب للبحث عن الطعام وعن المأوى أثناء النهار إذا  
سألتنى ، وبالطبع لديك الرغبة لطرح هذا السؤال ، عما فعلته بالمال  
الذى تركه لى أبى ، سأقول لك لم أفعل به شيئاً لقد احتفظت به فى  
جيبى ، لأننى كنت أعرف أننى لن أظل شاباً إلى الأبد ، وأن الصيف لن  
يدوم إلى ما لا نهاية ، ولا حتى الخريف ، نفسى البورجوازية قالت لى  
ذلك .

أخيراً قلت لها إننى ضقت ذرعاً بهذا المال . إنها تزعجنى بشدة  
حتى أثناء غيابها . إنها لا تزال تزعجنى باستمرار على كل حال ولكن  
مثلها فى ذلك مثل كل شىء حولى . ثم فى النهاية إن الإزعاج  
لا يزعجنى حالياً . ثم ماذا يعنى الإزعاج ؟ من الضرورى أن أنزعج ،

لقد تغير النظام الآن إننى أمسك فى يدي بعضا لاعب القمار الذى يعرف مقدماً أن مكسبه مضاعف ، الرقم الفائز هو تسعة أو عشرة . ثم إن كل ذلك على وشك الانتهاء :

الإزعاج والتعديلات لن نتحدث عنها بعد ذلك ، لا عنها ولا عن أى شئ آخر عما قريب ، لا عن الغائط ولا عن السماء .

قالت لى :

- إذن أنت لا تريدنى أن أحضر بعد ذلك .

شئ عجيب ! لما يردد الناس ما سبق أن قلناه لهم لتونا ، كأنهم يخشون المقصلة إذا صدقوا أذانهم قلت لها أن تأتى من وقت لآخر .

كنت لا أفهم النساء جيداً فى ذلك الوقت ، وما زلت لا أفهمهن حتى الآن . على العموم الرجال وحتى الحيوانات . أيضاً الشئ الوحيد الذى أفهمه جيداً هو ألامى . إننى أفكر فى جميع ألامى كل يوم ، تفكيرى سريع وألامى تمر سريعاً فى ذهنى بالرغم من أنها لا تأتى كلها من التفكير .

نعم ، كنت أشتهر فى ساعات كثيرة ، خاصة وقت العصارى ، بإدراك غير متميز ، نوع من تليفيق الأحاسيس حسب نظرية الفيلسوف الألمانى راينهولد . أى توازن هذا !

ثم إننى كنت لا أعرف ألامى جيداً ربما لأننى لست ألاما فقط . هذا هو الخداع الماكر ، إذن فلأهرب منه حتى الاندهاش ، أو حتى الإعجاب

بكوكب آخر . وهذا نادر ولكنه يكفينى . الحياة ليست غبية ؛ لذا فإن الإنسان لا يمكن أن يكون مجرد آلام وإلا فما معنى الأشياء . أن يصبح الجميع منتحبين ، شاكين ليس إلا ، سيتحول الأمر إذن إلى منافسة مستمرة وغير شريفة أيضاً .

ولكن سيأتى يوم وأبوح لك فيه بالآلمى الغريبة ، رغم ذلك وإذا لم أنس وإن استطعت أن أغفل ذلك وبكل وضوح وتمييز فيما بينهما لمزيد من الإيضاح . سأحدثك عن آلام الفكر والإدراك ، وآلام القلب ، والآلام العاطفية ، وآلام النفس والروح (حلوّة جداً آلام النفس هذه) ، ثم آلام الجسد ، الآلام الخفية ، الداخلية المختفية فى البداية ، ثم الآلام المكشوفة ابتداءً من آلام شعر الرأس ونزولاً بالتدريج وبدون استعجال حتى آلام القدمين ، مركز الكالو والأورام المستديرة والتسلخات والتشنجات الجلدية والأظافر المغروسة فى الجلد ، وانتفاخ واحمرار أصابع القدم وآلام القدم المفرطة أو ذات البروز إلى آخر هذه الغرائب . كذلك سأقول لمن يريد أن يسمعنى ويكون لديه النوق واللفظ لتحمل سماعى وسأنتهز هذه الفرصة وأقوم بتطبيق نظرية أحد الكتاب الذى نسيت اسمه فانتهج أسلوبه وأقول لمن يستطيع أن يسمعنى عن تلك اللحظات التى لا يكون فيها المرء مسطولاً ولا مضموراً ولا نشوان من تأثير مخدر ، ومع ذلك لا يشعر بأى شىء .

كانت بالطبع تريد أن تعرف ماذا أعنى بقولى لها أن تأتى من وقت لآخر . هذا ما جنيته لأنى فتحت فمى . هل معنى ذلك كل ثمانية أيام ؟ كل عشرة أيام ؟ أم كل خمسة عشر يوماً ؟ فقلت لها أن تأتى أقل



ما يمكن ، أقل بكثير مما يمكن ، ألا تأتي بتاتاً إذا كان ذلك ممكناً أما إذا لم يكن ذلك ممكناً فإنها تأتي أقل ما يمكن .

ثم إننى هجرت الدكة فى اليوم التالى ، ليس بسببها ولكن بسبب الدكة نفسها لأن موقعها لم يعد يفي باحتياجاتى المتواضعة إلى حد ما ، وذلك لأن البرد القارس بدأ يزحف ثم كانت هناك أسباب أخرى ولا أريد أن أضيع وقتي في سردها أمام البلهاء من أمثالكم .

احتميت فى «زريبة» أبقار مهجورة اكتشفتها أثناء تجوالى ، وهى تقع فى زاوية إحدى الحقول التى تكثر فيها النباتات الشوكية وتبرز أكثر من الأعشاب الخضراء بل إن فى بعض أجزاءه يغطى الوحل الأعشاب كلها ربما لأن جوف الأرض له خصائص مميزة .

وفى هذه «الزريبة» المغطاة بروث البقر الجاف والجلة التى تتفتت بمجرد أن ألمسها بأصبعى وكأنها تطلق زفرة ، فى هذا المكان ولأول مرة فى حياتى وربما لآخر مرة أيضاً - إذا امتلكت بعض المورفين - شعرت بصراع داخلى وبدأت أصارع شعوراً بدأ يتغلغل فى فكرى المتجمد ، شعوراً له اسم فظيع هو الحب .

إن الجمال الساحر الذى تتميز به بلدتنا لا يرجع فقط إلى قلة عدد سكانها ، بالرغم من استحالة العثور على واق لمنع الحمل ، ولكن يرجع إلى أن كل شىء فيها مهمل فيما عدا النفايات وبقايا البراز القديم . فالجميع ينحنون عليها ويتلقفونها بشغف ويغلقونها ويسيرونها بها فى موكب شبه مقدس . وفى كل مكان حولك حيث تجد كميات من البراز ساهم الطقس والأحوال الجوية فى منحها صلابة وأشكالا جميلة فاعلم

أن أهل البلد جلسوا القرفصاء هنا وزفروا زفرات انتفخت وجوههم من آثارها . هنا جنة الذين لا مأوى لهم . وهنا يكمن سر سعادتي فكل شيء يدعو لجلوس القرفصاء . لا أجد صلة بين كل هذه الملاحظات ، ولكن بكل تأكيد هناك صلة أو حتى صلوات ، ولكن ما هي ؟ نعم ، كنت أحبها ، هذا هو الاسم الذي كنت أطلقه والذي ما زلت أطلقه للأسف على ما كنت أفعله في ذلك الوقت .

لم يكن عندي معلومات عن الأمهر لأنى لم أحب قبل ذلك ، ولكنى كنت قد سمعت كلاماً عن هذا الشيء بالطبع فى البيت وفى المدرسة وفى الحانات وبيوت الدعارة والكنيسة . وكنت قد قرأت روايات من الشعر ومن النثر بإشراف الوصيى على ، روايات بالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية تناولت جميعها الحب كمادة أساسية .

كان بوسعى إذن أن أعرف ما كنت أفعله وأعطيه أسما ، خاصة عندما كنت أجد نفسى فجأة أكتب اسم لولو على روث البقر أو عندما أكون مستلقياً فوق الوحل . وأنزع النباتات الشوكية دون أن أكسر جذعها . كانت تلك النباتات الشوكية عملاقة ، أحيانا يبلغ طولها متراً فأقوم بنزعها بعنف ، وكان هذا يشفى غليلى بالرغم من أننى بطبيعتى لا أحب نزع الأعشاب الضارة بل على العكس يحلو لى أن أضيف عليها كثير من الأسمدة ، إذا كان عندى سماد . أما الأزهار فتلك حكاية مختلفة .

إن الحب يجعلك شريراً ، هذا واقع فعلى . ولكن أى نوع من الحب كان ذلك الحب ؟ هل كان غراما ملتهبا ؟ لا أظن لأن الشبق المفرط عند

الرجل نوع من الحب الملتهب ، أليس كذلك ؟ أم ترانى أخط بينه وبين أحد الأنواع الأخرى من الحب ؟ هناك أنواع عديدة من الحب ، أليس كذلك ؟ كلها أجمل من بعضها ، أليس كذلك ؟ الحب الأفلاطونى مثلا ، هذا النوع من الحب خطر على بالى فى هذه اللحظة ، إنه حب نزيه ، لا غرض من ورائه .

ربما كنت أحبها حبا أفلاطونياً ؟ أجد صعوبة فى تصديق هذا خاطر . فهل يا ترى كنت سأكتب اسمها على روث البقر إذا كنت أحبها حبا صافياً أفلاطونياً ؟ وأخطه بأصبعى فوق البراز ثم أمص أصبعى بعد ذلك غير معقول ، غير معقول أن يكون ذلك حبا أفلاطونياً . كنت أفكر فى لولو وإن كنت لا أقول كل شىء فأعتقد أنى أقول الكثير ، ثم إننى ضقت ذرعاً بهذا الاسم لولو وسوف أطلق عليها أسما آخراً يتكون من لفظ واحد مثل "آن" مثلاً ولكن حتى هذا الاسم لا يتكون من مقطع لفظى وحيد ولكن ما علينا .

إذن كنت أفكر فى "آن" أنا الذى تعلمت وتعودت على ألا أفكر فى أى شىء غير الآمى فقط ، ثم سرعان ما كنت أفكر فى ما يجب على أن أتخذه من تدابير حتى لا أموت من الجوع أو من البرد أو من الخجل ولكنى لم أفكر أبداً فى الناس بوصفهم مخلوقات ( ثم إننى أتساءل ما معنى ذلك ) .

ومهما قلت أو مهما سأقول فى هذا الموضوع فأنا تكلمت وسأتكلم دائماً عن أشياء لا وجود لها أو ربما تواجدت دائماً ولكن ليس بالمعنى الذى أعطيه أنا للأشياء . فمثلاً الكاب العسكرى موجود والأمل ضئيل

فى أن يتلاشى يوماً من فوق رؤوس العسكريين ولكننى أنالم أضع يوماً  
كابا فوق رأسى. لقد أرسلت خطابا إلى جهة ما ولكنهم ما أعطونى .....  
قبعة أبدأ . إنهم لم يعطونى قبعة أبدا ؛ لقد احتفظت دائما بقبعتى ،  
القبعة التى أعطها لى أبى ولم يكن عندى أبداً قبعة غيرها وظلت تتبعنى  
حتى الموت .

كنت أفكر إذن فى "أن" ، أفكر فيها كثيرا ، كثيرا ، لمدة عشرين  
دقيقة ، خمس وعشرين دقيقة وأحيانا لمدة نصف ساعة يوميا . إننى  
أتوصل إلى هذه الأرقام بإضافة أرقام أخرى أصغر منها . ذلك كان  
أسلوبى فى حبها ، فهل معنى ذلك أننى كنت أحبها حبا فكريا وعقلانياً  
انتزعنى من مواقف كثيرة فيها غباء ؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك . لأننى  
إذا كنت أحببتها مثل هذا الحب فهل كنت سأجد متعة فى كتابة كلمة  
"أن" فوق كميات لا حصر لها من روث البقر ؟ وهل كنت سأجد متعة فى  
نزع النباتات الشوكية بكلتا يدي ؟ وهل كنت سأحس بفخذيها ترتجفان  
تحت صلعتى مثل وسادتين تحت قبضتى .

وحتى أضع حدا لهذه الحالة التى كنت عليها ، ذهبت ذات مساء إلى  
المكان الذى توجد فيه الدكة فى نفس الساعة التى كانت تأتى فيها لتلحق  
بى فى هذا المكان ولكنها لم تأت وانتظرتها بلا طائل . كنا فى شهر  
ديسمبر ، أو ربما فى شهر يناير والريح شديدة ، ممتازة مثل كل شىء  
فى هذا الفصل . ولكن بعد عودتى إلى (الزربية) أقنعت نفسى بمبررات  
جعلتنى أقضى ليلة ممتازة وارتكزت هذه المبررات على أن الموعد  
الرسمى يتغير فى تسجيله مع تغيير الهواء والسماء وحتى القلب أيضاً

وذلك حسب عدد أيام السنة . لذا فقد ذهبت فى اليوم التالى إلى مكان الدكة مبكراً عن البارحة ، قبل انقضاء الليل الحقيقى ورغم ذلك يبدو أننى تأخرت ، لأنها كانت جالسة على الدكة تحت فروع الشجرة المغطاة بالجليد وأمام الماء المتجمد من البرد . لقد سبق وقلت لك أنها امرأة عنيدة جداً ومتشبثة جداً برأيها . كل ما حول الشجرة من نفايات تحوّل إلى جليد أبيض ولم أكن أحس بأى شىء حولى من شدة البرد . ما مصلحتها فى ملاحقتى بهذا الأسلوب ؟ سألتها هذا السؤال وأنا أمشى أمامها ذهاباً وإياباً فوق الجليد دون أن أجلس وكنت أدق الأرض بقدمى بينما الجليد يتكون أمامى ويجعل الطريق يبدو منتفخاً .

وأجابتنى أنها لا تدرى .

ألححت عليها لتقول لى ماذا كانت تجد فى يستحق أن تراه ؟ وإذا كانت تستطيع الإجابة ولكنها أجابت أنها لا تستطيع .

كانت ترتدى ملابس ثقيلة جداً وحتى يديها تغطيها بقطعة من الفرو أسطوانية الشكل وأتذكر أننى بكيت عندما نظرت إلى هذا الفرو بالرغم من أننى لا أتذكر لونه شعرت بضيق لحظتها ، إن دموعى تسيل بسهولة دون أن أستفيد أبداً من مثل هذه المواقف المؤثرة التى تسيل فيها دموعى وأعتقد أننى لو حاولت حالياً أن أبكى فإننى لن أستطيع أن أذرف دموعاً واحدة . ولكن فى تلك اللحظة كنت متضايقاً وكنت أبكى من الأشياء حولى بالرغم من أننى لم أكن حزينا . ولكن عندما أجد نفسى أبكى بغير سبب واضح فذلك معناه أننى رأيت شيئاً ضايقنى بالرغم منى ؛ لذا فإننى أتسائل عما إذا كانت رؤية ذلك الفرو الأسطوانى الشكل هى التى جعلتنى أبكى فى تلك الليلة ، أو ربما كان السبب هو الطريق المنتفخ بالجليد ربما جعلتنى تكورات الجليد أتذكر أرضية أخرى متكورة هكذا، وربما يكون السبب شيئاً آخر رأيتة فى تلك الليلة رغماً عنى .

رأيتها إذن للمرة الأولى فى تلك الليلة : كانت جالسة متكورة على نفسها وكأنها منكفئة ورأسها مائلة . وكانت متدثرة بملابسها الثقيلة ويديها بداخل قطعة الفرو الإسطوانية الشكل فوق حجرها وساقها مضمومتين وقدميها فى الهواء .

كانت بلا مواصفات ولا يبدو لها عمر ولا حياة حتى ، كان يمكن أن تكون امرأة عجوز أو طفلة صغيرة .

ثم إن أسلوبها فى الرد لا يزيد عن لا أعرف أو لا أستطيع بينما كنت أنا الذى لا يعرف ولا يستطيع .

سألتها : هل جئت إلى هنا من أجلى ؟

فقلت : نعم .

فقلت لها : إذن ، هاأنذا .

وقلت لنفسى : وأنا ألم أحضر إلى هنا من أجلها ؟ فما معنى إذن ،

هاأنذا ، هاأنذا ؟ .

جلست بجوارها ولكنى سرعان ما انتفضت واقفا وكأنما لسعتنى

مكواة ساخنة ، كنت أريد أن أنصرف حتى أعرف أن كل شىء قد انتهى ولكن حتى أتأكد من ذلك طلبت منها قبل أن أنصرف أن تغنى لى أغنية.

اعتقدت فى البداية أنها سترفض ، أقصد ببساطة أنها لن تغنى ولكن

لا ، فبعد برهة بدأت تغنى وأخذت تغنى لمدة طويلة ، غنت نفس الأغنية ،

رددتها مراراً على ما أظن دون أن تغير جلستها .

لم أكن أعرف الأغنية فلم أسمعها من قبل ولا من بعد ولن أسمعها

أبداً ، ولكنى فقط من بين كلماتها أذكر كلمة شجرة الليمون أو ربما

شجرة البرتقال ، ولا أذكر أيهما بالضبط ، ولكن على كل حال بالنسبة

لى فإن مجرد أنى تذكرت كلمة شجرة الليمون أو شجرة البرتقال يعتبر نجاحاً فى حد ذاته لأننى فى الغالب لا أحفظ شيئاً من الأغانى الأخرى التى أسمعها ؛ لأنه من المستحيل أن نحيا حتى الحياة التى أحيها أنا دون أن نسمع أغنيات من حولنا إلا إذا كان الإنسان أطرش بالفعل . ولكن من جميع الأغنيات التى سمعتها طوال حياتى ، ولقد سمعت الكثير والكثير ، ولم أحفظ منها كلمة أو نغمة أو جملة ، ربما بعض النغمات القليلة جدا أو ربما ... ربما ماذا ؟ يكفى هذا فقد طالت هذه الجملة أكثر من اللازم .

ابتعدت عنها إذن وبينما كنت أبتعد كانت هى مستمرة فى الغناء ، أغنية أخرى أو ربما تكلمة نفس الأغنية ، بصوت خفيض وضعيف وكان الصوت يخفت شيئاً فشيئاً بمجرد ابتعادى ويتضاءل كلما ابتعدت حتى اختفى تماماً فى النهاية قد يكون بسبب أنها انتهت من الأغنية أو بسبب أنى ابتعدت كثيرا عنها بحيث لم يعد بمقدورى أن أسمعها . انتابنى الشك بسبب انقطاع الغناء ولم أكن أحب وأنا فى تلك السن أن أعيش مع الشك ، حقيقة كنت أعيش فى شك وتردد مع تقلبات الزمن معى فى تلك الآونة ، ولكنى بالرغم من ذلك لم أكن أطيق هذه اللحظات المليئة بالشك الفعلى الملموس - كما يقولون - ، وكنت أفضل أن أتخلص منها بسرعة لأقطع الشك باليقين حتى لا يلاحقنى الشك أسابيع متتالية مثل أنتى الذباب الضخم .

عدت على أعقابى وخطوت بضعة خطوات إلى الخلف ثم توقفت ، سمعت صوتها ولكنه كان خافتا وضعيفاً ، وتلاشى ... ثم عدت أسمعها ، سمعته إذن وأخذت أنصت إليه فى لحظة ما ؛ لأنه انتشر فجأة بلا بداية

كإنما خرج فجأة من الصمت وانتشر رويداً رويداً تماماً مثل صاحبه .  
وعندما توقف الصوت فى النهاية خطوت عدة خطوات أخرى نحوها حتى  
أتأكد من أنها توقفت عن الغناء وليس لأن الصوت ابتعد . وبعد أن  
يئست من التأكد قلت لنفسى لا يمكن أن أعرف وأتأكد إلا إذا كنت  
بجانبيها وأن أنحنى أيضاً لأراها وأتأكد بنفسى ، وفى النهاية استدرت  
وعدت من حيث أتيت واليأس يملؤنى . ولكن بعد مرور عدة أسابيع كنت  
فى حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة عدت مرة أخرى إلى الدكة  
وكانت تلك المرة الرابعة أو ربما الخامسة التى أعود فيها إلى الدكة بعد  
أن هجرتها ، كنت أعود إليها فى نفس الساعة تقريباً وتحت نفس  
السماء ، أقصد تقريباً تحت نفس السماء ، ليس هذا ما أردت قوله لأن  
السماء هى دائماً نفسها ولكنها لا تكون أبداً نفس السماء فى كل مرة ،  
كيف أعبر عن هذا المعنى ، بكل بساطة لن أعبر عنه .

ولكنها لم تكن جالسة على الدكة . ولكنها فجأة أصبحت موجودة على  
الدكة ، لا أدرى كيف لأننى لم أرها وهى قادمة ولم أشعر أو أحس  
بصوت عند قدومها رغم أننى كنت أراقب المكان . فلنقل أن الجو كان  
ممطراً فذلك كفى بتغيير السرد .

كانت تحتوى من المطر تحت مظلة مطر تحملها فى يدها وبالطبع هذا  
يدل على أن لديها ملابس ثمينة تود المحافظة عليها . سألتها إذا كانت  
تأتى إلى هنا كل مساء ، فقالت :

- لا ، من حين لآخر فقط .

وبما أن الدكة كانت مبتلة بشدة فإننا لم نجرؤ على الجلوس عليها .  
أخذنا نتمشى ذهاباً وإياباً وأمسكت بذراعها مدفوعاً بنوع من الفضول



فقد أردت أن أعرف إذا كان ذلك سيسعدنى أم لا ولكنى لم أشعر بأية سعادة ؛ لذا فقد تركت ذراعها . ولكن لماذا كل هذه التفاصيل ؟ لتأخير الأجل .

لمحت وجهها عن قرب فوجدته وجهاً عادياً : وجه مثل ملايين الوجوه ، وعينيها بهما حول ، ولكنى لم ألاحظ ذلك إلا فيما بعد ، لم يدل وجهها عما إذا كانت شابة أو عجوز بل إنه يبدو ما بين النضارة والذبول . وكنت لا أطيق مثل هذا الالتباس حينذاك .

أما إذا أردنا أن نعرف إذا كان وجهها جميلاً ، أو كان جميلاً فى يوماً ما ، أو إذا كانت هناك إمكانية ليصبح جميلاً ، فإنى أقر هنا أنه لم يكن بمقبورى أن أعرف ذلك . كنت قد رأيت عدة تصاوير يمكن أن أقول عنها أنها جميلة بمراجعة معلوماتى عن مفهوم الجمال .

أما وجه أبى وهو على فراش الموت فإنه أوحى إلى بضرورة وجود جراحات التجميل للبشر . ولكن ذلك يجعلنا نتساءل عما إذا كانت وجوه البشر ، خاصة تلك التى تزداد فيها التجاعيد تحت البشرة المشربة بحمرة الدم ، هل يمكن اعتبارها مجرد أشياء ؟ .

أخذت أتأمل قطرات مياه المطر ، بالرغم من الظلام حولنا ، وبالرغم من اضطرابى ، لاحظت أن قطرات المياه غير المتحركة وكذلك القطرات التى تتحرك ببطء تبدو وكأنها تود أن تلتحم بقطرات مياه المطر المتساقطة وكأنها عطشى وتريد أن ترتوى . سألتنى إذا كنت أرغب فى أن تغنى لى شيئاً فأجبتها بأننى لا أرغب فى ذلك ، ولكنى أريد أن تقول لى شيئاً وكنت أتوقع أن تقول أنه ليس لديها ما تقوله لى ، فهذا من صميم طبيعتها . ودهشت أشد الدهشة عندما قالت لى أن لديها غرفة ،

دهشة لذيذة إلى حد ما ، ولكن ما الغرابة في ذلك فكل إنسان لديه غرفة يقطن فيها ، من لا يملك غرفة ؟ أه ها أنا أسمعها وهي تصيح "عندى غرفتان" سألتها : - كم غرفة لديك بالضبط ؟

فأجابت بأن عندها غرفتان ومطبخ .

ومع كل إجابة يزداد العدد وسوف تتذكر ثم تضيف أن لديها حمام .  
أعدت عليها السؤال :

- إذن لديك غرفتان ، كما تقولين .

فأجابت :

نعم .

فسألتها :

- والغرفتان متجاورتان الواحدة بجانب الأخرى :

أخيراً وجدنا موضوعاً للحديث يستحق أن يكون حديثاً .

- نعم ولكن المطبخ في الوسط .

وسألتها لماذا لم تخبرني بذلك من قبل . وكنت بالطبع تأثرا

وغير متحكم في أعصابي حينئذ لم أكن أشعر بالراحة وأنا بجانبها

ولكن - على الأقل - كنت أشعر أنني حر في التفكير في شيء آخر

سواها ، وهذا في حد ذاته يعنى كثيراً ، كنت أفكر في كل ما تعرضت

له من أحداث ومررت كلها بخيالي الواحدة تلو الأخرى ، وهكذا ظننت

الأحداث تتوالى في مخيلتي حتى وصلت إلى أقرب حادثة وكأني وصلت

إلى الدرجة الأخيرة في سلم يفضى إلى مياه عميقة . وكنت أعرف أنني

سأفقد حرية التفكير عندما أغادرها وأبتعد عنها .

فى الواقع كان لديها غرفتان يفصل بينهما مطبخ ، فهى إذن لم تكذب على . قالت لى أنه يجب أن أذهب وأحضر حاجياتى فأفهمتها أن ليس عندى حاجيات .

كنا نقف فوق أعلى بيت قديم ونرى إذا أردنا رؤية الجبل من خلال النوافذ . أشعلت مصباح كيروسين فسألتها :

- أليس لديك التيار الكهربائى ؟

فأجابت :

- لا ، ولكن عندى المياه الجارية والغاز .

فعلقت على قولها بقولى :

- إذن ، لديك الغاز .

بدأت تخلع ملابسها هكذا هن عندما لا يجدن ما يفعلنه فإنهن يخلعن

ملابسهن وهذا بدون شك أفضل ما يستطعن أن يفعلنه !

خلعت جميع ملابسها ببطء شديد يضايق أضخم فيل ولكنها لم تخلع

جواربها الشفافة لعلها أرادت بذلك إثارتى إلى أقصى حد . وهنا فقط

لاحظت أن عينيها بهما حول .

لحسن الحظ لم تكن هذه أول مرة أرى فيها امرأة عارية ، فبقيت

لأنى كنت أعرف أنها لن تنفجر .

قلت لها إننى أود أن أشاهد الغرفة الثانية ، لأننى لم أكن قد رأيتها

بعد ، وحتى إذا كنت قد رأيتها لقلت لها أننى أرغب فى مشاهدتها من

جديد .

ولكنها سألتنى :

- ألن تخلع ملابسك ؟

فقلت لها :

- لا ، أنا لا أخلع ملابسى إلا فيما ندر .

وهذه حقيقة فأنا لست الذى يخلع ملابسه لكل صغيرة بل كنت أخلع  
حذائى فقط عند النوم ، أقصد عندما كنت أتقرفص لأنام وأحيانا كنت  
أخلع الملابس الخارجية طبقاً لحالة الطقس ودرجة الحرارة .

اضطرت إذن إلى أن تغطى نفسها وترتدى "روب دى شامبر"  
وتصطحبنى إلى الغرفة الأخرى وهى تحمل المصباح فى يدها . ومررنا  
بالمطبخ وكان بإمكاننا أيضاً أن نمر من الممر الخارجى ، هذا ما عرفته  
فيما بعد ، ولكن فى تلك المرة مررنا بالمطبخ لا أدرى لماذا ، ربما لأن ذلك  
هو الطريق المباشر المختصر . نظرت إلى الغرفة برعب فقد كان بها  
كمية من الأثاث تفوق ما يمكن تخيله . خُيل لى أننى رأيت هذه الغرفة  
قبل ذلك .

فصحت متسائلاً :

- ما هذه الغرفة ؟

فأجابت :

- إنها غرفة الاستقبال .

فتساءلت فى دهشة :

- غرفة الاستقبال ؟

ثم بدأت أخرج قطع الأثاث من الغرفة قطعة قطعة من الباب المؤدى  
إلى الممر الخارجى . وأخذت هى تنظر إلى بدون كلمة ويبدو أنها كانت  
متضايقة ، على ما أظن ، وفى الحقيقة ما كان بوسعى أن أعرف .  
سألتنى عما أفعل دون أن تتوقع إجابة على سؤالها . على ما أظن ،

كنت أنا مستمراً فى إخراج قطع الأثاث واحدة واحدة وأحياناً اثنين معاً ، وكدستها فوق بعضها على جدار الممر الذى امتلأ عن آخره بمئات من قطع الأثاث ، قطع كبيرة وقطع صغيرة ملأت الممر حتى باب الغرفة بحيث لم يعد ممكناً الدخول أو الخروج من الغرفة من باب الممر ولكن كان بالإمكان فتح الباب وإغلاقه ، لأنه كان يُفتح ويُغلق من الداخل وليس إلى الخارج ، أما المرور من الباب فلم يعد ممكناً . لا يمكن اختراقه ...  
كلمة كبيرة : اختراق !

قالت لى :

- اخلع قبعتك ، على الأقل .

سوف أحدثكم عن قبعتى مرة أخرى لم يبق فى الغرفة إذن سوى أريكة كبيرة وبعض الأرفف الخشبية على الجدران . قمت بإزاحة الأريكة حتى نهاية الغرفة بالقرب من الباب ، أما الأرفف فقد نزعتهما فى اليوم التالى ووضعتهما فى الخارج مع بقية الأثاث فى الممر وعندما كنت أنزع الأرفف تذكرت كلمة "ورم" "أو" ليفة" لا أدرى أيهما خطر على بالى لحظتها دون أن أعرف لها معنى ولم يدفعنى الفضول أبداً إلى البحث عن معناهما فى القاموس . كم من الأشياء تخطر لنا ونتركها أو نؤجلها !  
عندما انتهيت من إخراج جميع قطع الأثاث من الغرفة ألقيت بنفسى على الأريكة . أما هى فإنها لم تكف خاطرها بمساعدتى وأنا أنقل الأثاث ولكنها سألتنى فى النهاية :

- هل أحضر لك بعض الملاءات والأغطية ؟

ولكنى لم أحب الملاءات طوال حياتى ولم أستعملها أبداً .

فقلت لها :

- ألا يمكنك إغلاق الستائر ؟

كان زجاج النافذة مغطى بالجليد من الخارج وبالرغم من ظلام الليل ومن أن الجليد لم يكن يبدو أبيض إلا أنه كان يعطى بعض الضوء . وبالرغم من أنني رقدت على الأريكة وقدمائى فى اتجاه باب الغرفة إلا أن النور البسيط الشاحب البارد القادم من زجاج النافذة ضايقتنى ، فقامت فجأة وأدريت اتجاه الأريكة أى أنني جعلت ظهر الأريكة الذى كان مستنداً على الجدار فى الإتجاه المعاكس ، ثم تسلقت ظهر الأريكة وركدت عليها ووجهى فى اتجاه الحائط حيث يستند مقعد الأريكة على الحائط حالياً . تسلقت إذن ظهر الأريكة مثلما يفعل الكلب عندما يتسلق جدار السلة ليرقد بداخلها . سألتنى :

- هل أترك لك المصباح ؟

ولكنى رجوتها أن تأخذه معها . ولكنها عادت تسألنى :

- وإن إحتجت شيئاً أثناء الليل ؟

وأوشكت أن تفتح موضوعاً للمناقشة ، هذا ما شعرت به ، عندما

سألتنى من جديد :

- هل تعرف كيف تذهب إلى الحمام ؟

كان الحق معها لأننى لم أفكر فى الحمام فعندما يجد المرء نفسه مستريحاً فى فراشه تنتابه الفرحة ولكنه بعد قليل يشعر "بحاجة ملحة" فقلت لها :

- إحضرى لى "وعاء للتبول أثناء الليل" .

أحببت هذا التعبير ، أقصد أحببت ترديده كثيراً "وعاء للتبول أثناء

الليل" ، لأنه يذكرنى بالشاعر "راسين" أو "بودلير" ، لا أدرى أيهما

بالضبط ربما الاثنان معاً ، نعم ، كنت أقرأ الكثير وبعد قراءتهما كنت أصل إلى حيث تنتهي الكلمة والفعل ، كأنما نقرأ شعر "دانت" .

ولكن لم يكن لديها "وعاء للتبول أثناء الليل" . فقالت إن عندها مقعد مثقوب ، وتراءت لى الجدة العجوز وهى جالسة فوقه بكل فخر ولكنها جافة ومنتصبة كالوتد ، ربما اشترت المقعد المثقوب من مزاد ، عفوا أقصد أنها اقتنته من مزاد خيرى ، من يانصيب خيرى ربما ، فهو قطعة أثاث أثرية ، كانت تحتضن المقعد المثقوب أو - على الأقل - تحاول احتضانه كأنما تود أن يراها أحد وهى فى هذا الوضع .

فقلت لها :

- أعطيني إذن وعاء عادياً ، أنا لست مريضاً بالزُحار . فعادت بعد قليل وهى تحمل قدرة ، لم تكن قدرة بمعنى الكلمة فلم يكن لها يد طويلة بل كانت بيضاوية الشكل ولها يدان وغطاء .  
- هذا قدر يصلح لكل شىء .

فقلت لها :

- لن أحتاج لغطاء القدر .

فرددت بدهشة :

- لن تحتاج للغطاء ؟

لو أنني قلت لها إننى محتاج للغطاء لرددت أنت محتاج للغطاء أخذت منها القدرة ووضعتها تحت الأغطية ، لأنى أحب أن أمسك بشىء فى يدي عند النوم ، مما يقلل شعورى بالخوف .

كانت قبعتى لا تزال مبللة فأدرت وجهى ناحية الجدار .

اتجهت هي نحو المدفأة ، وأخذت المصباح الذي كانت قد وضعتة فوق جدار المدفأة ، بكل تحديد ، نعم يستحسن التحديد ، أخذ شبحها على ضوء المصباح يتحرك فوقى وظننت أنها ستغادرني ولكن على العكس جاءت وانحنت فوق ظهر الأريكة نحوى وهى تقول أن كل ذلك يعتبر شئون عائلية .

ولو أننى فى مكانها لغادرت الغرفة على أطراف قدمى ، لكنها لم تتحرك . أهم ما فى الأمر أننى بدأت أحس أننى لم أعد أحبها . نعم ، كنت أحس بأننى أفضل حالا من ذى قبل وأننى بدأت مرحلة مقاومة الهبوط التدريجى والمتاهات التى غرقت فيها منذ مدة ، والتى حرمت خلالها من انتشال نفسى منها وكل ذلك بسببها . كنت قادمة لتوى ولا أفكر إلا فى النوم قبل كل شىء . قلت لها :

- من المستحيل أن تحاولى طردى الآن .

لم أع ما قلته ، أو بالأحرى خيل إلى أننى لم أفهم معنى الكلمات التى نطقت بها ولم أعيها إلا بعد عدة ثوان . حتى أننى لم أسمع سوى صوتى وأعيه ، لأننى كنت غير معتاد على الكلام لذا فقد كنت أحيانا أنطق ببعض الجمل السليمة من ناحية اللغة والنحو ولكنها بدون معنى ، ليس بدون معنى تماما لأننا إذا تعمقنا فيها فإن لها معنى وأحيانا معانٍ ولكن ليس لها مبرر أو أساس .

ولكنى كنت أسمع صدى صوتى بمجرد أن أنطق بها .

وفى تلك المرة سمعت صوتى بوضوح شديد ربما لأول مرة جاغنى صوتى ببطء شديد .



استدرت لأرى تأثير جملتى عليها ورأيتها تبتسم .

وبعد قليل أخذت المصباح وانصرفت .

سمعتها وهى تخترق المطبخ ثم تدخل غرفتها وتغلق باب الغرفة خلفها . أخيراً أصبحت وحدى فى الظلام ، أخيراً . ولن أقول أكثر من ذلك ، واعتقدت أن أمامى ليلة مريحة ، ونوم عميق بالرغم من غرابة المكان حولى ، ولكن على عكس ما توقعت كانت ليلتى مضطربة جدا .

استيقظت فى صباح اليوم التالى وأنا منهوك القوى وملابسى فى حالة من الفوضى من حولى ، وكذلك الأغطية وأن بجوارى عارية تماما بالطبع . لقد أجهدت نفسها بدون شك لأننى كنت ما أزال ممسكا بالقدرة فى يدي فنظرت بداخلها ، واتضح لى أننى لم أستخدمها ، ونظرت إلى عضوى ، أه لو استطاع أن ينطق ، لن أقول أكثر من ذلك ، كانت ليلة حب .

وانتظمت حياتى رويداً رويداً فى هذا البيت . كانت تحضر لى وجباتى فى المواعيد التى حددتها لها ، وتأتى من وقت لآخر لترى إذا كنت على ما يرام أو إذا كنت أحتاج شيئاً ، وكانت تفرغ القدرة مرة فى اليوم وترتب الغرفة مرة فى الأسبوع .

ولم تكن تستطيع أن تمنع نفسها من الحديث معى لإشباع فضولها ولكن بصفة عامة لم يكن عندى مجال للشكوى منها . ومن وقت لآخر كنت أسمعها وهى تغنى فى غرفتها فتخترق الأغنية باب غرفتها وتمر عبر المطبخ ثم عبر باب غرفتى وتصل إلى ضعيفة خافتة ولكنها واضحة وربما مرت الأغنية عبر الممر أيضاً . لم أكن أتضايق من سماعها تغنى من حين لآخر . وذات يوم طلبت منها أن تحضر لى زنبقة نضرة فى

أصيص فأحضرتها لى ووضعتها فوق إطار المدفأة ، فلم يكن فى غرفتى أية قطعة أثاث يمكن وضع شىء فوقها إلا إطار المدفأة وألا يتم وضعها على الأرض .

كنت أنظر يومياً إلى الزنبقة ذات اللون الوردى رغم أننى كنت أريد زنبقة زرقاء . فى البداية كانت الزنبقة نضرة بل أنها أعطتني عدة زهرات ولكنها سرعان ما ذبلت ولم يبق سوى جذع مائل وكأنه ينتحب وسط عدة أوراق باكية بينما جنور الزهرة قد برزت من طينة الأصيص كأنما تبحث عن الأكسجين وتناثرت منها رائحة كريهة . فأرادت "أن" أن ترميها ولكنى طلبت منها أن تتركها فأرادت أن تشتري لى واحدة أخرى ولكنى قلت لها أننى لا أريد غيرها .

ولكن ما كان يضايقنى أشد الضيق هو بعض الأصوات والضحكات والتأوهات التى كانت تملأ الشقة فى ساعات معينة سواء بالليل أو بالنهار ، ولم أكن خلالها أفكر فى أن بالمرّة بل كنت فقط أحتاج للهدوء لأعيش حياتى . حاولت أن أعقلّ نفسى وأقنع نفسى أن الهواء والجو من حولى يمكن أن يحتوى على بعض الضوضاء ، وأن الضحكات والتأوهات جزء من العالم من حولى ولكنى رغم ذلك لم أكن أطيقها ولم أستطع أن أحدد إذا كانت الضحكات والتأوهات تصدر من نفس الشخص أو إذا كان هناك عدة أشخاص ، فالضحكات الصغيرة والتأوهات تتشابه بشدة !

ولكنى فى ذلك العهد كنت أتضايق جداً من هذه الأشياء المميزة بالرغم من تفاهتها . وفى كل مرة أفكر فيها كنت أقع فى نفس الفخ حيث لا يستريح قلبى ولا أتوصل للحقيقة .

أخذ منى التفكير وقتاً طويلاً ، ربما عمراً بأكمله ، حتى أدركت أن بعض الأشياء الصغيرة مثل لون عين نصف مفتوحة ، أو مصدر صوت بعيد ، هي أقرب إلى الفهم ، وسط جحيم الجهل ، من وجود الله أو من وجود المادة الحية فى الخلايا أو من وجود الذات وتتطلب مزيداً من الحكمة وليس البعد عن الحكمة والعقل .

عمراً بأكمله كثير على مجرد التوصل إلى هذه الخلاصة الموسمية فليس أمامكم متسع من الوقت للإستفادة منها ؛ لذا فقد استفدت كثيراً عندما سألتها وناقشتها فى الأمر فقالت لى أن ذلك بسبب الزبائن الذين كانت تستقبلهم بالتناوب .

كان بوسعى أن أنهض من مكانى وأن أذهب تلقائياً للنظر من ثقب مفتاح الباب ، إذا افترضنا أن الثقب غير مسدود ، لكن ماذا يمكن أن نرى من مثل هذا الثقب ؟

فقلت لها :

- إذن أنت تعيشين من الدعارة .

فأجابتنى :

- نحن الإثنين ، نعيش من الدعارة .

فقلت لها وكأئنى أصدق بالفعل ما قالت لى :

- ألا تستطيعين أن تطلبى منهم أن يخفضوا من أصواتهم أو أن يصدروا ضجيجاً مختلفاً .

فأجابت :

- لا بد وأن يصيحوا هكذا .

فقلت لها :

سأضطر إلى الرحيل .

فبحثت فى مستودع أسرتها عن بساط قديم ووضعت بساطاً على باب غرفتها وأخر على باب غرفتى .

سألتها إذا كان بالإمكان أن تحضر لنا من وقت لآخر جزر أبيض لناكله .

فتساءلت فى دهشة وكأنما طلبت منها أن تذبح لى رضيعاً يهودياً لناكله :

- جزر أبيض ؟ !

فشرحت لها أن الجزر الأبيض له موسم محدد وأنا فى نهاية هذا الموسم ، وأنها لو استطاعت أن تطبخ لى عدة مرات طبقاً من الجزر الأبيض قبل انتهاء الموسم فساكون لها شاكرأ وممنوناً . كنت أحب الجزر الأبيض لأن طعمه شبيه بطعم زهرة البنفسج وأحب زهرات البنفسج لأن لها رائحة الجزر الأبيض ، وإذا لم يتواجد الجزر الأبيض فى هذه الدنيا فإن زهر البنفسج لن يصبح محبوباً إلى نفسى وإذا لم يتواجد زهر البنفسج فإن الجزر الأبيض سيصبح غير ذى أهمية بالنسبة لى - تماماً - مثل الفجل واللفت .

وفى الحالة الراهنة للنباتات فى العالم ، أقصد فى هذاالعالم حيث يتواجد الجزر الأبيض وزهرة البنفسج ويتعايشان فإننى بوسعى أن أستغنى بكل سهولة عن الاثنين معا .

وذات يوم أعلنت لى بكل وقاحة أنها حامل فى أربعة أو حتى خمسة أشهر وأننى والد الجنين . واستدرت ووقفت وقفة جانبية حتى الملح بروز

بطنها وانتفاخها . ثم خلعت ملابسها ، بدون شك لتثبت لى أنها لا تضع  
وسادة صغيرة فوق بطنها وربما يكون ذلك لمجرد المتعة فى خلع الملابس .  
قلت لها ربما يكون ذلك مجرد انتفاخ فى الأمعاء حتى أرفع من  
معنوياتها وأهدأ من روعها فنظرت إلى بعينيها الواسعتين اللتين لا أتذكر  
أبدا لونهما ، أو بالأحرى بعين واحدة لأن عينها الأخرى كانت فى اتجاه  
آخر ربما تنظر إلى أصيص الزنبقة أو ما تبقى منها . وكان الحول فى  
عينها يزداد كلما تعرت .

قالت لى وهى تنحنى تحت ثديها :

- أنظر جيداً إن الدائرة تتسع وتبدو واضحة .

استجمعت كل قواى وقلت لها :

- أجهضى نفسك ، أجهضى نفسك حتى لا تكتمل الدائرة .

كانت قد أزاحت الستائر حتى تبدو استداراتها بوضوح ، فنظرت إلى  
الجبل من خلال النافذة ، الجبل الذى لا يتأثر بشىء ، ويحتفظ بأسراره فى  
كهوفه العديدة ، والذى أسمع صوت الرياح وهى تهب عليه ليلاً ونهاراً ،  
وصوت الكروان وأصوات ضربات مفاعل العمال الذين ينحتون الجبل  
بضربات خفيفة بحثاً عن الرخام الصوانى .

سأخرج فى النهار لأتمتع بحرارة الزهور البنفسجية وبعبيرها البرى  
أما فى الليل فأشاهد أضواء المدينة البعيدة إذا رغبت فى ذلك والأضواء  
الأخرى أيضاً ، أضواء الفنارات والبواخر الإرشادية التى علمنى والذى  
أسماءها جميعاً وسوف أعثر على تلك الأسماء فى ذاكرتى إذا رغبت فى  
ذلك بكل تأكيد .

ومنذ ذلك اليوم تدهورت الأمور بيننا فى هذا البيت ، خاصة بالنسبة لى . سارت الأمور إلى أسوأ ، ليس لأنها بدأت تهملنى فما كان بمقدورها أبداً أن تهملنى ، ولكن لأنها كانت لا تكف عن المثول أمامى فى كل لحظة لتقتلنى "بطفلنا" وهى ترينى بطنها وثديها وتقول لى إنه سيأتى إلى هذه الدنيا بين لحظة وأخرى وأنها تحس به وهو يتحرك منذ الآن .

فقلت لى نفسى :

"إذا كان يتحرك هكذا فهو ليس من صلبى " .

لم تكن أحوالى رديئة فى هذا البيت ، وبكل تأكيد لم تكن معيشتى فيه مثالية ولكن على كل حال كنت أقدر المزايا المتوفرة فيه . ترددت فى ترك البيت لأن أوراق الشجر بدأت تتساقط وكنت أخاف من الشتاء .

يجب ألا نخاف من الشتاء فله أيضاً حسناته : الجليد يوحى بالدفء ويخفف من الضوضاء ونهار الشتاء الشاحب ينتهى بسرعة . ولكنى فى تلك الآونة لم أكن أعرف طيبة الأرض وكرمها على الذين لا يملكون سواها وأن الأحياء يجنون فى الأرض كثيراً من المقابر .

أما ما قضى علىّ - تماماً - فهو الولادة ، لقد أيقظتني ما الذى

يجب أن يأخذه هذا الطفل ؟

أظن أن إحدى السيدات جاءت وبقيت معها فى الغرفة لأنى كنت أسمع

من حين لآخر خطوات فى المطبخ .

كنت أتألم بشدة لأنى سأغادر بيتا لم يطردنى أحد منه . تسللت من

فوق ظهر الأريكة وارتديت سترتى وفوقها معطفى ثم قبعتى ، لم أنس

شيئاً ، ثم ربطت رباط حذائى قبل أن أفتح الباب المطل على الممر ،

وبالرغم من قطع الأثاث الملقاة فى فوضى فى الممر والتي كانت تعيق

المرور فيه إلا أننى نجحت فى المرور منه بعد عدة تسلخات وكسور

وفرقعات . تكلمت فى البداية عن زواجى ولكن فى الواقع كان ذلك نوعاً من الارتباط . وما كان لى أن أشعر بحرج خاصة أن صيحاتها وصراخها فاق الحدود ، وبكل تأكيد كانت تلك أول ولادة لها . ولاحقتنى صرخاتها حتى أول الشارع ، فتوقفت أمام باب البيت الخارجى وأخذت أدقق السمع فسمعت صرخاتها المتواصلة ربما ما سمعتها لو أننى لم أكن أعرف أن هناك صرخات فى ذلك البيت ولكن لأنى كنت أعرف فقد سمعتها جيداً .

لم أكن أعرف أين أنا بالضبط ، وأخذت أبحث وسط النجوم والكواكب عن الدب الأكبر والدب الأصغر ولكنى لم أتمكن من العثور عليهما ، ولكنهما متواجدان بكل تأكيد ، فقد كان أبى أول من دلنى عليهما وعلى غيرهما من النجوم والكواكب ولكنى لم أنجح وحدى أبداً فى التعرف عليهما .

أخذت ألهو بالإنصات إلى صرخاتها أو ألعب نفس اللعبة التى لعبتها من قبل بالإنصات إلى أغنياتها ، أى أبتعد بضعة خطوات ثم أعود أدراجى وأتوقف ثم أتقدم وأتوقف ، إذن كان من الممكن تسمية ذلك لعبة لم أكن أسمعها عندما أسير بسبب صوت خطواتى ولكن ما أن أتوقف عن السير حتى أسمعها من جديد ، ضعيفة وواهنة المرة بعد المرة ، ولكن ما الفرق إذا كانت الصرخة ضعيفة أو قوية ؟ فالمهم هو أن تتوقف الصرخة . وظللت لسنوات طوال أعتقد أن تلك الصرخات ستتوقف ولكنى الآن لم أعد أعتقد ذلك ، ربما كان من الضرورى أن أقع عدة مرات أخرى فى الحب ولكن الحب لا يخضع للإرادة ولا يأتى بناء على طلبنا .

( انتهت )

( ١٩٤٥ )

# المُصَلِّة

\*\* من فتوى \*\*  
www.ibtesama.com  
مشاركات مجلة الإبتسامه





لنتخيل . صوت يصل إلى إنسان فى الظلام صوت يصل لظهر إنسان فى الظلام .

الظهر فقط حتى لا نذكر غيره والطريقة التى يتغير بها الظلام عندما يفتح عينيه ثانية ثم عندما يغلقيهما من جديد . جزء ضئيل جداً مما يقال يمكن أن نتحقق منه . مثلاً عندما يسمع : إنك على ظهرك فى الظلام . فهنا لا يمكن إلا أن يتقبل ما يقال . ولكن معظم ما يقال بعيداً جداً عن إمكانية التحقق منه . مثلاً عندما يسمع : أنت تعيش يوم كذا ويوم كذا . فقد يحدث أن يختلط الإثنان مثلاً أنت تعيش يوم كذا وكذا يوم وأنت الآن على ظهرك فى الظلام . ربما تكون حيلة تهدف إلى إنارة أحد المفهومين وإلقاء الضوء على غموض المفهوم الآخر . هذا هو الاقتراح إذن . صوت ينساب فوق ظهر إنسان فى الظلام يفتت له الماضى . أحياناً يبدو الحاضر أيضاً من وقت لآخر ولكن نادراً ما يظهر المستقبل . مثلاً ستنتهى كما أنت .

وفى ظلام آخر أو فى نفس الظلام إنسان آخر . لنتخيل كل ذلك ولنتمتع بالصحبة . اكتم السر . استخدام ضمير المخاطب من رجع الصوت .

أما ضمير الغائب فإنه صوت الآخر . إذا استطاع هو أن يتكلم يكلم من ؟ ، وعن من يتكلم الصوت ؟ قد يكون هناك ثالث . ولكنه لا يستطيع ذلك . ولن يفعله . أنت لا تستطيع ذلك . أنت لن تفعل ذلك .

فيما عدا الصوت وصدى أنفاسه ليس هناك أى ضجيج يستطيع هو أن يسمعه على الأقل صدى أنفاسه الواهنة تخبره بذلك .

بالرغم من أنه يركز الآن على الأسئلة فإنه لا يستطيع إلا أن يتساءل إذا كان الصوت يتحدث إليه ، ألا يمكن أن يكون قد التقط حديثاً موجه لإنسان آخر ؟ إذا كان وحيداً ممدداً على ظهره فى الظلام فلماذا لا يقول له الصوت ذلك ؟ لماذا لا يقول له الصوت مثلاً أنت تعيش يوم كذا وكذا يوم وأنت الآن وحيد ممدد على ظهرك فى الظلام ؟ لماذا ؟ ربما الهدف الوحيد هو خلق هذه البلبلة فى ذهنه وهذا الشعور بالضيق كان ذهنك دائماً غير نشيط وهو الآن أقل نشاطاً من أى وقت مضى . هذا النوع من التأكيدات يتقبله عن طيب خاطر أنت ولدت يوم كذا وكذا وذهنك غير النشط - يوماً - هو الآن أقل نشاطاً من أى وقت مضى . ولكن يلزم الآن مشاركة فى الصحبة قليل من النشاط الذهنى مهما كان ضعيفاً . لهذا السبب لا يقول الصوت، أنت ممدد على ظهرك فى الظلام، وذهنك ليس له أى نشاط من أى نوع .

إن الصوت وحده يعتبر صحبة ولكن ليس ذلك كافياً . إن تأثير الصوت على السامع يعتبر إضافة ضرورية ، حتى وإن لم تكن إلا ذلك الشعور الغامض بالضيق وهذه البلبلة المذكورة بعاليه . ولكن وحتى وإن وضعنا جانباً مسألة الصحبة فإن هذا التأثير يفرض نفسه ، لأنه إذا كان عليه فقط أن يسمع الصوت وألا يكون للصوت تأثير عليه وكأنه كلام بلغة إفريقية أو بلغة اسكتلندية ، فكان من الأفضل أن يصمت الصوت . إلا إذا كان هدف الصوت هو مجرد قطع الصمت ، وتعذيب عاشق

الصمت بإسماعة مجرد صوت ليس إلا . أو بالبداهة - وكما ذكرنا - مسبقاً أن يكون الصوت موجّهاً لإنسان آخر .

وأنت طفل صغير تخرج من محل جزارة "كونولى" ممسكا بيد أمك . تسيران معاً يمينا وتتقدمان فى صمت وتسلكان الطريق نحو الجنوب . وبعد حوالى مائة خطوة تدخلان البيت وتصعدان نحو المسكن . تتقدمان فى صمت نحو الهواء الرطب الهادى فى الصيف . الوقت بعد العصر وبعد مائة خطوة تبدو الشمس فوق قبة الكنيسة . ترفع أنت رأسك نحو السماء الزرقاء ثم نحو وجه أمك وتقطع الصمت وأنت تسألها إذا لم تكن الشمس أبعد بكثير مما تبدو والسماء الزرقاء تسمع نفسها . أنت لا تسمع جوابا من أمك فتعيد صياغة السؤال ، ثم ترفع رأسك مائة خطوة أخرى بعيداً ثم ترفع رأسك نحو وجه أمك مرة أخرى وتسالها إن لم تكن الشمس أبعد بكثير مما تبدو فى الواقع . لسبب ما لم تستطع أنت أبداً أن تفهمه . ضايقها سؤالك كثيراً لأنها سحبت يدها من يدك وتركت يدك معلقة فى الهواء وكأنها ترقص رقصة فالس ، وألقت عليك إجابة جارحة لا تُنسى .

إن لم يكن الصوت يتحدث إليه فإنه يتحدث حتماً إلى إنسان آخر . وهكذا بدأ يفكر بما تبقى له من فكر . يتحدث الصوت إلى آخر عن ذلك الآخر أو عنه . أو ربما عن شخص آخر أيضاً . أو إلى آخر عن ذلك الآخر أو عنه أو عن شخص آخر أيضاً إلى شخص ممدد على ظهره فى الظلام فى جميع الأحوال ، إن كان هو أو شخص آخر . وهكذا بما تبقى له من عقل بدأ يفكر ولكن تفكيراً خاطئاً . إذا كان الصوت

لا يتحدث إليه ولكن يتحدث إلى آخر فإن الصوت يتحدث عن ذلك الآخر بكل تأكيد وليس عنه أو عن شخص آخر . بما أن الصوت يتحدث بضمير المخاطب . إذا كان الصوت لا يتحدث عن الشخص الذى يخاطبه فإن الصوت لن يستخدم ضمير المخاطب وإنما يستخدم ضمير الغائب . سيقول الصوت مثلاً ، إنه ولد فى يوم كذا وكذا ، والآن هو ممدد على ظهره فى الظلام . من البديهي إذن إذا كان الصوت لا يتحدث عنه إليه ولكن إلى شخص آخر فإن الصوت لا يتحدث وإنما عن ذلك الآخر وليس أيضاً عن أى شخص آخر ، وهكذا بما تبقى له من عقل أخذ يفكر تفكيراً خاطئاً .

وحتى يتسنى له أن ينعم بالصحبة فإن عليه أن يثبت ويظهر بعض النشاط الذهنى ولكن ليس من الضرورى أن يكون باهراً . بل يمكن القول أنه من الأفضل ألا يكون باهراً إلى درجة ما . سينعم بالصحبة أكثر إذا كان باهراً أقل إلى درجة ما .

لقد رأيت عيناك النور لأول مرة فى نفس الغرفة التى نام فيها والداك معاً يوم أن حملت فيك أمك . النافذة العريضة فى الغرفة تطل على الجبل غرباً . تطل أساساً على جهة الغرب النافذة العريضة تطل أيضاً على الجنوب وعلى الشمال بالضرورة تطل قليلاً على الجنوب حيث الجبل وعلى الشمال حيث الوادى . الطبيب المولّد هو الدكتور هادن أو هدن وهو طبيب باطنى . له شارب طويل رمادى ويبدو عليه القلق الشديد .

يوم مولدك كان يوم عطلة رسمية ، لذا فإن والدك ما أن التهم إفطاره حتى غادر الدار وهو يحمل لفافة بها بعض السندوتشات بالبيض كما

يفضله ، وكذلك أيقونة صغيرة بها نبيذ اسكتلندي وذهب لنزهة جبلية .  
كان ذلك عادياً جداً بالنسبة له ، ولكن فى ذلك الصباح لم يكن دافعه  
لهذه النزهة الجبلية هو حبه للتريض فقط أو السير على الأقدام وحبه  
للطبيعة البرية . لكن كان هناك الضيق الشديد الناتج عن الآلام والمظاهر  
الأخرى غير المحببة التى تصاحب عملية الوضع . وما أن وصل قرب  
الظهر إلى قمة الجبل حتى جلس تحت ظل شجرة وارفة الظلال أمام  
البحر وأخذ يلتهم سنوتشاتة . ويمكنك أن تتخيل أفكاره أثناء وقبل  
وبعد قطفه للزهور البرية المتناثرة حوله .

عاد والدك إلى البيت بعد الغروب وفضل الدخول من باب الخدم  
وأبلغته الخادمة أن عملية الوضع لا تزال على أشدها مما أنهله . لا  
تزال نفس عملية الوضع مستمرة كما تركها منذ عشر ساعات عندما  
غادر البيت من قبل . بون أن ينبس بحرف جرى نحو المخزن فى نهاية  
الحديقة حيث تقف سيارته . استقل السيارة وأغلق بابها خلفه واعتدل  
فوق مقعد القيادة . يمكنك أن تتخيل أفكاره وهو قابع خلف عجلة القيادة  
ينتظر فى الظلام وهو لا يدرى كيف يفكر . وبالرغم من إجهاده الشديد  
والألم الذى يمزق قدميه إلا أنه كان على أهبة الاستعداد لإدارة محرك  
السيارة والسير بها وسط الحقول تحت ضوء القمر ، إلا أن الخادمة  
أسرعت إليه مهرولة وأخبرته أن كل شىء قد انتهى أخيراً . انتهى !

وأنت عجوز تسير بخطى بطيئة وثقيلة فى طريق ضيق فى الريف .  
لقد خرجت فى الفجر وأقبل عليك الليل الآن ليس هناك أى صوت وسط  
الصمت المطبق إلا صوت خطواتك . تنصت إلى صوت كل خطوة

تضيف عددها إلى المجموع المتزايد للخطوات السابقة . تتوقف ورأسك تنخفض نحو البئر وتجمع عدد الخطوات وتحولها إلى أمتار . كل خطوتين تكونان الآن متراً . عدد الخطوات والأمتار منذ الفجر وحتى الآن يجب إضافتها إلى أمتار اليوم السابق ، ثم إلى عدد أمتار العام السابق ثم السنوات السابقة . زمن مختلف عن الحاضر ولكنه متشابه جداً . المجموع ضخماً جداً بالكيلو مترات وبالأميال . كم مرة محيط الكرة الأرضية ؟ ظل والدك بجانبك هو أيضاً بلا حراك أثناء قيامك بالعد وجمع الكيلو مترات . والدك يرتدى أسماه البالية ، بذلة موظف السكك الحديدية . أخيراً تسيران جنباً إلى جنب وتبدأن من الصفر من جديد . الصوت يأتيه تارة من ناحية وتارة من ناحية أخرى . تارة يأتيه الصوت مستهلكاً من شدة البعد وتارة أخرى يأتيه همساً في الأذن وأثناء الجملة الواحدة يمكن أن يتغير الصوت حجماً ومكاناً . مثلاً يأتيه الصوت بوضوح من فوق وجهه المنكس ، لقد رأيت عيناك النور لأول مرة يوم عيد الفصح والآن . ثم يأتيه الصوت همساً في أذنه ، أنت ممدد على ظهرك في الظلام . أو بكل تأكيد بالعكس . هناك علامة أخرى هي أوقات الصمت الطويلة حيث يعتقد أو يجروء على أن يأمل أن يكون الصوت قد قال كلمته الأخيرة . نفس المثال يأتيه الصوت بوضوح من فوق وجهه المنكس ، لقد رأيت عيناك النور لأول مرة يوم صعود المسيح إلى السماء والآن . ثم بعد طول صمت وبعد أن يولد في قلبه الأمل يأتيه الصوت همساً ، أنت ممدد فوق ظهرك في الظلام . أو بكل تأكيد العكس .

هناك علامة أخرى وهى التكرار . إلى الأبد نفس الماضى مع تغيير طفيف . كأنما الهدف هو جعله ينساق بالقوة ويجعل هذا الماضى ماضيه . ليعترف ، نعم إننى أتذكر . ليهمس ، نعم إننى أتذكر . أية مساهمة فى الصحبة ستكون إذن . صوت يتكلم بضمير المتكلم المفرد همساً من بعيد لبعيد ، نعم إننى أتذكر .

شحاذاة عجوزة نصف ضريرة تحاول بكل قوتها فتح باب الحديقة . إنك تعرف المكان جيداً . ربة البيت طرشاء لا تسمع شيئاً ألبته ولا تملك كل قواها العقلية ولكنها على وفاق مع أمك . كانت متأكدة من أنها تستطيع أن تطير فى الهواء ، لذلك فقد ألقى بنفسها يوماً من نافذة الطابق الأول . عند عودتك من روضة الأطفال وأنت فوق دراجتك الصغيرة ، لمحت الشحاذاة العجوزة وهى تحاول جاهدة أن تفتح باب الحديقة ، أنت تنزل من فوق دراجتك وتفتح لها الباب ، فتدعى لك وتباركك . ماذا كانت كلماتها؟ ليجازيك الله على ذلك يا سيدى الصغير . وفى نفس السياق ، ليحفظك الله يا سيدى الصغير .

صوت ضعيف حتى فى أشد قوته . ثم يتراجع الصوت رويداً رويداً حتى حدود السمع . ثم يعود ببطء إلى أقصى درجات الضعف . ومع بداية كل تراجع يولد ببطء الأمل فى أن يتلاشى الصوت ويموت . عليه أن يعرف أن الصوت سيعود . ولكن هذا لا يمنع أنه مع كل تراجع ببطئ يولد من جديد الأمل فى أن يتلاشى الصوت ويموت .

دلف رويداً رويداً فى الظلام وفى الصمت وتمدد . وبعد وقت طويل جداً وبما تبقى له من قدرة على الاعتقاد ، أعتقد أن الصوت أصبح بلا رجعة . ولكن يوماً ما عاد الصوت . يوم !



أخيراً . ثم أخيراً كان الصوت يقول ، أنت على ظهرك فى الظلام .  
تماماً مثل أول كلمات الصوت . استراحة طويلة جعلته لا يصدق أذنيه ثم  
نفس الكلمات . ثم جاء القسم بعدم التوقف أبداً إلا مع فقدان السمع .  
أنت ممدد على ظهرك فى الظلام وهذا الصوت لن يتوقف أبداً إلا بعد أن  
تفقد سمعك . وبينما هو بين الحياة والموت وبين النور والظلام حيث  
تباعدت الأصوات وأصبحت نادرة ، انساب الصمت والظلام رويداً رويداً .  
ستلوم الصحبة ، ربما . أية أصوات من بعيد لبعيد ؟ من أين يأتى  
نصف الظلام .

أنت واقف فوق حافة مقفز ( منط ) عالٍ فوق البحر ، وعلى صفحة  
ماء البحر وجه والدك مقلوب . وجهه مقلوب نحوك وأنت تنظر إلى أسفل  
إلى ذلك الوجه المحبوب الصديق . والدك يصرخ فيك لتقفز . يصرخ  
ويقول لك تشجع ! الوجه المستدير الأحمر . والشارب الكثيف والشعر  
الرمادى . الأمواج المضطربة تغطى الوجه وتقذف به بعيداً . ويأتىك النداء  
عن بعد : تشجع ! العالم ينظر إليك ، ومن الماء البعيد ومن الأرض الصلبة .

صوت من بعيد لبعيد . إنها نعمة وأية نعمة فى اللجوء إلى ذلك فى  
الظلام والصمت تغمض عينيك وتسمع صوتاً . شئ ما يترك مكانه  
ويتحرك لمكانه الأخير . بشئ رخو يتحرك برخاوة حتى لا يضطر إلى  
الحركة بعد ذلك . فى الظلام المرئى ، تغلق عينيك ولا تسمع سوى ذلك .  
شئ رخوة يتحرك برخاوة حتى لا يضطر إلى الحركة بعد ذلك .

الصوت يحدث بريقاً . يضىء الظلام بينما الصوت يتكلم ثم يتكثف  
الظلام حين ينخفض الصوت . يضىء الظلام عندما يعود الصوت إلى

أضعف قوته . ويعتدل حين يصمت الصوت. أنت على ظهرك فى الظلام .  
لو كانت عيناك مفتوحتين لرأتا أن هناك تغييراً .

من أين يأتى نصف الظلام ؟ وما هى الصُّحبة فى الظلام ؟ إغلاق  
عينيك وحاول أن تتخيلها . من أين يأتى نصف الظلام ، فى الماضى ؟  
ليس هناك منبعاً واضحاً . كأن فراغه الصغير يضئ فجأة بلا حرارة .  
ماذا كان بإمكانه أن يرى من فوق وجهه المُنكس ؟ أغمض عينيك فى  
الظلام وحاول أن تتخيل ذلك .

علامة أخرى مميزة هى النبرة الرتيبة . بدون حياة ، نفس النبرة  
دائماً . عند التأكيدات وعند النفى وعند الاستجاب وعند علامات  
التعجب وعند الإرشادات . كنت فى الماضى لم تكن أبدا . هل تواجدت  
يوماً ؟ آه ، ما تواجدت أبدا ! كن من جديد . نفس النبرة الرتيبة .

هل يمكن أن يتحرك ؟ هل يتحرك ؟ هل يجب أن يتحرك ؟ ربما  
يساعده ذلك خاصة عندما يضعف الصوت . حركة بسيطة مهما كانت  
صغيرة . حتى مجرد يد تُغلق أو تُفتح أن كانت مغلقة فى البداية . كم  
سيساعده ذلك فى الظلام .

يغمض عينيه ويرى تلك اليد . باطن يد مفتوحة تملأ حقل الرؤية  
خطوط الكف . الأصابع التى تنتشى ببطء أو التى تنفرد إذا كانت منثنية  
منذ البداية . خطوط الكف فى باطن اليد العجوزة .

هناك العين بالطبع . تملأ المجال . الجفن ينسدل ببطء مثل الحجاب  
أو ينسحب إلى أعلى إن كان منسدلاً منذ البداية . المقلة حدقة العين  
ليس إلا جاحظة عمودياً ، منسدلة أو منسحبة ، منسدلة من جديد ثم  
منسحبة مرة أخرى .

وإذا تكلم فى النهاية . حتى وإن كان بضعف شديد . ما ستكون  
المساهمة فى الصلابة إذن . أنت ممدد على ظهرك فى الظلام وسيأتى  
يوم وتتكلم من جديد . يوم أخير . أخيراً ستتكلم من جديد . نعم إننى  
أتذكر . إنه أنا إذن . كنت أنا إذن .

أنت فى الحديقة وحدك . والدتك فى المطبخ تُعد شرائح الخبز بالزبدة  
لتناولها مع السيدة كوت بعد الظهر . إنها تضع طبقة خفيفة من الزبد  
فوق شرائح الخبز . أما أنت فتراقب السيدة كوت من خلف سور  
الشجيرات وهى تقترب . إنها سيدة نحيفة وجافة وقصيرة القامة .  
تجيبها والدتك بأنك تلعب فى الحديقة . أنت تتسلق شجرة عالية وتصل  
إلى قممها وتمكث هناك تنصت إلى كل الأصوات ، ثم تقفز إلى أسفل .  
فروع الشجرة الكبيرة تحد من وقع سقطتك ، تظل لحظة ووجهك نحو  
الأرض ثم تتسلق الشجرة من جديد . والدتك تجيب السيدة كوت وتقول  
لها إنك فظيع فى شقاوتك .

بماذا يشعر الآن بما تبقى له من شعور بالنسبة لما كان من قبل ؟  
بما تبقى له من المقدرة على الحكم أعتقد أن حالته بلا عودة . فمن  
الأحرى أن يتساءل عما يشعر به الآن بالنسبة لما كان من قبل وبما كان  
يشعر به من قبل بالنسبة لما هو الآن ، وبما أنه لم يكن هناك من قبل ،  
ومن ثم فإنه لا يوجد الآن .

فى نفس الظلام أو فى ظلام آخر إنسان آخر يتخيل كل ذلك لينعم  
بالصلابة . كلام يبدو واضحاً من الوهلة الأولى ، ولكن عند إمعان النظر  
فيه يبدو ذلك غير واضح إلى أن تغمض العين وتستطيع الرأس أن تفكر

بعد أن ترتاح فتبحث في الأمر ما معنى ذلك ؟ ماذا يعنى ذلك الذى كان واضحاً منذ أول وهلة إلى أن تُغلق العين مثلما تغلق نافذة في غرفة مظلمة وفارغة .

النافذة الوحيدة المطلة على الخارج المظلم . ثم بعد ذلك لاشئ . لا . للأسف لا . ومضات الذى يصارع الموت وتشنجات تقلبات فكرية لا يمكن وصفها ولا تهدئتها .

ليس هناك وجهة معينة أو اتجاه محدد على الطريق من بدايته إلى نهايته . أو ربما لمزيد من الدقة طريق "باليوجان" هذا الطريق الريفى القديم الغالى . فى موقع ما من طريق "باليوجان" بدلاً " من أى طريق آخر على وجه الخصوص . فى موقع ما من طريق "باليوجان" فيما بين بدايته ونهايته . أنت تسير ورأسك منحنية إلى أسفل تكمل العد عند حافة البئر . عن يسارك الطرق الأولى وأمامك المراعى ، وعن يمينك ظل والدك فى تراجع بسيط . عدة مرات ، تجاوزت محيط الكرة الأرضية . معطف طويل من أسفل القدم إلى الرأس كان أخضر اللون فى الماضى وأصبح قاتماً من القدم والقذارة . وقبعة منثنية كانت صفراء فى الماضى حذاء كبير لا يزال أنيقاً . بدأت الطريق فى الفجر وأقبل عليك الليل الآن . انتهى العد والحساب ، إلى الأمام معا أنتما الاثنان ، تبدآن من الصفر . سيراً إلى الأمام فى اتجاه "ستيباسيد" . ولكن فجأة تقطعان الطريق من أمام سور الشجيرات وتختفيان بتباطؤ نحو الشرق من وسط الحقول .

لأن ماذا ؟ لماذا فى ظلام آخر فى نفس الظلام ؟ ومن ذا الذى يسأل  
ومن الذى يسأل ؟ من يسأل عن ذلك واجب ، من الذى أو من يكون الذى  
يتخيل كل ذلك . فى نفس الظلام أو فى ظلام آخر . لينعم بالصحة ، من  
الذى يسأل فى نهاية الأمر ؟ من يسأل ، وفى نهاية الأمر ، اجب مثلما  
حدث بأعلاه . وأضاف بعد ذلك بمدة طويلة وبصوت خفيض ، إلا أن  
يكون هناك شخص آخر مرة أخرى . لن يعثر عليه فى أى مكان ، لن  
يُبحث عنه فى أى مكان ، لا يمكن التفكير فيه . لا يمكن أن يُسمى .  
آخر شخص ممكن أنا .. اكنم السر بسرعة .

النور الموجود حينئذ فوق ظهرك فى الظلام النور الموجود حينئذ .  
وضوح بلا سحب ولا شمس . تفر من البيت مع مطلع النهار وتتسلق  
الريوة للوصول إلى مخبأك . عش فى أعلى شجرة ذات زهر أصفر ،  
هناك شرقاً بعد البحر والجبال العالية . مسافة طولها سبعين ميلاً حسب  
المعلومات المذكورة فى كتاب الجغرافيا الخاص بك . للمرة الثالثة أو  
للمرة الرابعة فى حياتك . فى المرة الأولى أخبرتهم بذلك فانبسطت  
أساريك . لم تر إلا السحاب . ومنذ ذلك الوقت وأنت تحصده فى قلبك  
مثل كل شىء . تعود مع هبوط الليل وتذهب إلى فراشك بدون تناول  
العشاء . أنت ممدد فى الظلام فى هذا النور من جديد ، وأنت فى  
مخبأك فى العش بأعلى الشجرة تحديق بنظراتك فيما وراء البحر إلى أن  
تجهد عيناك ، تغمض عينيك وتعد حتى مائة ثم تفتحها من جديد وتحديق  
من جديد . إلى أن تراهن أمامك . أزرق باهت تماماً مثل السماء الباهتة .  
أنت ممدد فى الظلام فى هذا النور من جديد . تنام فى ذلك النور بلا  
سحاب ولا شمس . ثم حتى بزوغ نور الصباح .

مخترع الصوت والسامع ونفسه ، مخترع نفسه لينعم بالصحبة  
لنتوقف هنا . إنه يتحدث عن نفسه كما لو كان شخصاً آخر . يقول وهو  
يتكلم عن نفسه ، أنه يتحدث عن نفسه كما لو كان شخصاً آخر . إنه  
يتخيل نفسه لينعم بالصحبة . لنتوقف هنا . الإلتباس هو أيضاً ينعم  
بالصحبة . إلى درجة ما . من المستحسن أن يكون هناك أملاً مشعوذاً  
فذلك أفضل من عدم وجود أمل ، إلى درجة ما إلى أن يبدأ القلب يشعر  
بالممل ويميل أيضاً الصحبة ، إلى درجة ما . من المستحسن أن يكون  
هناك قلب يشعر بالممل فذلك أفضل من عدم وجود قلب . إلى أن يبدأ  
القلب فى الهلاك . وهكذا وهو يتكلم عن نفسه ، يخلص فى النهاية إلى  
القول لنتوقف عند ذلك مؤقتاً . مؤقتاً .

فى نفس الظلام من خياله أو فى ظلام آخر . لتتخيل ذلك . كذلك  
الوضع . واقف أو جالس أو ممدد نائم أو فى وضع آخر ، أى وضع فى  
الظلام . إجابات من بين إجابات أخرى لتتخيلها . من بين أخريات على  
أسئلة أخرى أيضاً . مع الأخذ فى الاعتبار التمتع بالصحبة . أى  
الظلامين جدير بأن ينعم بالصحبة ؟ وأى وضع من الأوضاع كلها التى  
يمكن تخيلها يستطيع أن يمنح شيئاً فى مجال الصحبة ؟ كذلك الحال  
بالنسبة للأسئلة الأخرى التى يمكن تخيلها أيضاً . مثل ذلك السؤال  
لمعرفة إذا كانت مثل هذه القرارات لا تقبل الطعن فيها . كأن يقرر مثلاً  
بعد تخيل عاقل وناصح لصالح وضع الاستلقاء سواء على الظهر أو على  
البطن وعلى الأمد البعيد يكون هذا الوضع مخيباً للأمال بالنسبة  
للصحبة . وهل من الممكن فى هذه الحالة استبدال ذلك الوضع بوضع

آخر . مثل جلوس القرفصاء مثلاً والسيقان منتثية في نصف دائرة  
مكوّنة بالذراعين والرأس فوق الركبتين . بعض الحركة مثلاً . حتى إذا  
تحرك على أربع . شخص آخر في نفس الظلام أو في ظلام آخر يتحرك  
على أربع ويتخيل كل ذلك لينعم بالصحبة . أو أى أسلوب آخر للحركة  
إمكانيات التلاقى . فأر ميت أية مساهمة في الصحبة ستكون تلك ؛ فأر  
ميت منذ مدة . ألا توجد وسيلة لجعل السامع أكثر طيبة ؟ لجعله حلو  
المعشر أو على الأقل أكثر إنسانية . من الناحية الذهنية إدخال بعض  
الحركة والحيوية . جهد ضئيل للتفكير والتأمل على الأقل . مجهود  
لمحاولة التذكير أو لتحريك العضلات مثلاً . بقايا انفعال . بعض علامات  
القلق والضيق . شعور بالهلاك . بون الخروج من الشخصية . محاولة  
شاقة جداً . ولكن من الناحية الجسدية هل يجب عليه أن يظل ممدداً  
بلا حراك حتى النهاية ؟ الجفون فقط هي التي تهتز من وقت لآخر لأن  
ذلك ضرورياً من الناحية الفنية . حتى يمكن قبول الظلام أو إقصائه .  
ألا يستطيع أن يضع ساقاً فوق ساق ؟ من بعيد لبعيد . يضع الساق  
اليسرى فوق اليمنى حيناً وحيناً آخر وفي الوقت المناسب العكس .  
لا . لا يتناسب بالضرورة . كيف يمكن أن يكون هو ممدداً وساقيه  
ملتويتين ؟ مرفوضة للوهلة الأولى ، حركة ما باليد؟ تقلص . فك التقلص .  
صعب الدفاع عن ذلك .

أو حركة نهوض لطرده ذبابة . ولكن لا يوجد ذباب . ، بالرغم من وجود  
الذباب . لما لا ؟ الإغراء شديد . أن توجد ذبابة ، ذبابة حية تحسبه ميتاً  
بالخطأ . تفهم الذبابة خطأها ثم تعيد الكرة على الفور . أية مساهمة

فى الصببة سلكون لك . ذبابة حفة آسبه مفاً بالخطأ . ولكن لا . إنه لا يمكن أن يطرد ذبابة .

مشفق أنت على قنفذ واقف فى البرد بالخارج فتأخذه وتضعه فى صندوق قبعات قديم من الكرتون وتضع معه مخزون من الديدان . ثم تضع الصندوق وبداخله الحيوان أكل الديدان فى قفص الأراب الفارغ القديم وتترك الباب مفتوحاً بعد أن تثبته حتى يستطيع الحيوان أن يتحرك ذهاباً وإياباً بحرية . وبعد أن يذهب القنفذ سعياً وراء الأكل وبعد أن يأخذ كفايته يعود إلى الحرارة والأمان داخل الكرتون فى القفص . ها هو ذا القنفذ داخل الكرتون ومعه كثير من الديدان بما يكفيه ويجعله ينظر بعيداً . تنظر أنت نظرة أخيرة لتتأكد أن كل شىء على ما يرام قبل أن تغادر المكان وتذهب تبحث عن شىء آخر لقتل الوقت البطئ بطناً قاتلاً حتى وأنت فى هذه السن الصغيرة .

هذه الشعلة التى ارتفعت إلى السماء بعد هذه الحسنة كانت أطول من المعتاد ولم تتضاءل أو تنطفأ إلا ببطء شديد . لقد كنت تنفعل بشدة تلقائياً فى ذلك العهد ولكن ذلك لم يكن يستمر طويلاً . فما أن تشتعل الشعلة من جراء حسنة تقوم بها أو من انتصار تحققه ضد أعدائك أو بعد كلمة ثناء من والديك أو من مدرسيك ، سرعان ما كانت الشعلة تخبو وتتضاءل وتتركك بعد وقت قصير جداً لتعود كما كنت ضعيفاً مرتعشاً ومظلماً كما كنت من قبل . حتى فى ذلك العهد . ولكن ليس فى ذلك اليوم . وحتى نقول الخلاصة عن ذلك الماضى فقد حدث ذلك عصر أحد أيام الخريف عندما التقيت بالقنفذ وأشفقت عليه هكذا وشعرت بقيمة



الحسنة التي قمت بها عندما أويت إلى فراشك لتنام في تلك الليلة .  
فركعت على ركبتيك عند حافة الفراش وأنت تصلى وأضفت اسم القنفذ  
إلى قائمة المخلوقات الحبيبة إليك والتي تذكرها كل ليلة في صلاتك قبل  
النوم وتوصى الله بها . ثم وأنت تتقلب في فراشك تحت دفاء الملاءات  
والأغطية منتظراً ، يغلبك النعاس . كنت تشعر بحرارة في قلبك وأنت  
تفكر في هذا القنفذ المحظوظ الذي أعترض طريقك مثلما فعل من حسن  
حظه. هذا ما حدث بالضبط في هذه الحالة حيث أنت وقفا عند تقاطع  
طريق تغطي جانبيه شجيرات صغيرة ذابلة وكنت تتساءل عن أفضل  
طريقة لقتل الوقت حتى غروب الشمس . وفجأة مرق هو من بين إحدى  
الشجيرات واخترق الطريق رأساً إلى الجانب الآخر وفي تلك اللحظة  
دخلت أنت حياته . ولكن في صباح اليوم التالي كانت الشعلة قد انطفأت  
وحل محلها في قلبك شعور بالانقباض والضييق الشديد . داهمك شعور  
غامض بأن ما حدث لم يكن يجب أن يحدث . وأنه بدلاً مما فعلته  
بالأمس كان يجب أن تترك الطبيعة على فطرتها وأن تترك القنفذ يسلك  
طريقه على حريته . وانقضت أيام طويلة كاملة ثم أسابيع قبل أن تواتيك  
الشجاعة وتعود إلى القفص ، لم تنس أبدا ما رأيته حينئذ . أنت ممدد  
في الظلام على ظهرك ولم تنس أبدا ما رأيته حينئذ . تلك العصيدة  
المهروسة . تلك النتانة وذلك التلوث .

منذ بضعة لحظات بدأ التهديد الآتى . تضاءلت الحاجة إلى الصحبة  
لحظات شعر فيها بالارتياح من صحبة نفسه فيها بلا اختلاط . الصوت  
فيها إذن دخيلاً . وكذلك صورة السامع وحتى صورته ، شعر بالندم ،

لأنه أوجدهما بطريقة مزبوجة ، والمشكلة الآن فى كيفية التخلص منهما .  
وأخيراً ما معنى صحبة نفسه بلا اختلاط ؟ وأى ارتياح ممكن ؟ لنتوقف  
هنا مؤقتاً .

فليكن اسم السامع "هاش" مع الضغط على حرف الهاء "هاش" أنت  
يا هاش ممدد على ظهرك فى الظلام . وليعرف اسمه . لم يعد الأمر  
يتعلق باكتشاف أشياء فجأة . لا ليس بالنسبة له لا يمكن أن يكون هو  
غير مقصود أو مستهدف . بالرغم من أنه منطقياً لا يوجد أى سؤال .  
همس فى جوف الأذن يتساعل إن كان الكلام موجهاً له هكذا هو .  
فقدان عدم التأكد إذن ، ذلك الغموض هذا الأمل الضعيف بالنسبة له هو  
الذى يُحرم كثيراً من المناسبات التى يمكنه فيها أن يشعر بشيء . هو  
الذى ليس بإمكانه أن يعرف معنى الشعور . إنه لا يأمل أكثر من أن  
يتمكن من ألا يشعر بشيء فهل هذا مستحب ؟ كلا . وهل سينعم  
بالصحبة من وراء ذلك ؟ كلا . إذن فلا داعى لأن يكون اسمه هاش .  
فليكن من جديد كما كان دائماً ، بلا اسم أنت .

لنتخيل عن قرب المكان الممدد فيه . بدون مبالغة ، هناك إشارة تنبع  
من الصوت البعيد وتدل على الشكل وعلى الاتساع . إن الصوت يأتى  
من بعيد ويصل إليه بعد رجوع بطئ . وأحياناً يسمع الصوت فجأة  
بطريقة مبالغته وأحياناً يعود الصوت بعد انقطاع طويل . ويأتى ذلك من  
أعلى أو من كل جانب وعلى جميع المستويات وينفس درجات الضعف  
القصوى الناتجة عن الابتعاد الأقصى . ولا يأتى الصوت أبداً من  
أسفل . حتى الآن ومن ثم فإن المنطق يحتم أن يكون الفاعل على ظهره

فى جناح دائرى مقبب ذى قطر عريض بحيث تكون رأسه فى وسط  
الدائرة . كم يبلغ طول العرض ؟ ونظرا لأن الصوت ضعيف فى درجته  
القصوى من الضعف فإن مسافة عشرين متراً يمكن أن تكون كافية أى  
عشرة أمتار منذ وإلى أية نقطة من المساحة المحيطة به . هذا فيما يتعلق  
بالشكل والاتساع . وماذا عن الخامة ؟ أية إشارة أو دليل إنها تواجدت  
ومن أين ؟ لا يجب اتخاذ أى قرار الآن ، على الأقل حتى الآن . وهكذا  
بعد أن تضايق من الصوت ومن السامع فيما عدا نفسه ، بدأ يتخيل .  
ولكن بقليل من الخيال أكثر من ذى قبل ، رأى أنه قد تخيل خطأ . فبأى  
حق يؤكد أن الصوت ضعيف حتى وإن كان الصوت الضعيف أصبح  
أكثر ضعفاً بسبب البعاد ، ليس لأنه أكثر ضعفاً منذ أن صدر أساساً  
بكل بساطة ؟ أو ربما يكون صوتاً ضعيفاً ويصبح ضعفاً بالابتعاد وليس  
لأنه يضعف فى مكانه . ليس له أى حق فى تأكيد ذلك . لا يمكن إذن أن  
يلقى الصوت ضوءاً على طبيعة المكان الممدد فيه السامع العزيز . فى  
الظلام الذى لا قياس له ، ولا حدود ، لتتوقف هنا مؤقتاً . ولكن نضيف  
فقط ما نوع هذا الخيال الملوث بالتعقل ؟ إنه نوع نادر .

شخص آخر يتخيل كل ذلك لينعم بالصُّحبة فى نفس الظلام من  
خياله أو فى ظلام آخر . لتتخيل بسرعة فى نفس الظلام .

ألا توجد طريقة لجعل الصوت أكثر طيبة ؟ لجعله حسن المعشر .  
افترض أن الصوت قد طرأ عليه تعديل منذ لحظات . بالرغم من أنه ليس  
هناك زمن للفعل فى هذا الشعور المبهم . كل شىء فى كل لحظة منتهى  
ومستمر بلا نهاية . ولكن افترض أنه بالنسبة للآخر منذ لحظات طرأ

تعديل على الصوت ، تعديل إلى الأفضل . نفس النبرة الرتيبة دائماً  
مثلاً تخيلنا فى البداية ونفس التكرار لا يوجد شىء نعيد قوله ، ولكن  
الحركة أقل . والتنويع فى الضعف أقل أيضاً . وكأن هناك بحثاً عن  
موقع أنسب . ومن ثم التحرر من الالتزام بأقصى ما يمكن من تأثير .  
أقصى مدى للاستماع الأمثل . مع الأخذ فى الاعتبار عدم إزعاج الأذن  
بارتفاع درجة الصوت ولا على العكس إجبارها على الإنصات ومحاولة  
الاقتراب لسماع أفضل ، مثل هذا العضو سيكون أكثر استعداداً  
للصُحبة من ذلك الذى تخيلناه بسرعة فى البداية . إنه أفضل بكثير  
خاصة عند الاقتراب من الهدف . هدف منح السامع ماضياً وجعله  
يوافق على ذلك الماضى . لقد ولدت يوم الجمعة المقدسة بعد مخاض  
صعب طويل . نعم ، إننى أتذكر . بعد أن غربت الشمس وراء الأشجار  
والجبال . نعم ، أننى أتذكر ، تماماً مثل قطرة الماء عليها أن تسقط  
رأساً على الصخر بون أن تتحرف حتى تنخر جدار الصخر .

حينما خرجت من البيت آخر مرة كانت الأرض مغطاة بالجليد . أنت  
الآن على ظهرك فى الظلام بينما كنت ذلك الصباح واقفاً عند عتبة الباب  
الخارجية بعد أن أغلقت الباب بهدوء خلفك أسندت ظهرك على الباب  
ورأسك منتشية إلى الأمام وأنت تستعد للسير . حين فتحت عينيك من  
جديد لم تر قدميك فقد انسدل ذيل معطفك ولامس الجليد . يبدو المشهد  
الحزين وكأنه مضى من أسفل . أنت ترى نفسك فى تلك اللحظة يوم  
خروجك الأخير وأنت مسند ظهرك على الباب الخارجى فى انتظار أن  
تنطلق فى السير . بعيداً عن هنا . ثم المشهد تحت ضوء الجليد .

أنت ممدد في الظلام مغمض العينين وتشاهد نفسك وأنت في ذلك الحين مستعداً للإطلاق في السير فوق حقل النور . وتسمع من جديد صرير الباب الخارجى وهو ينفلق خلفك بهدوء ، ثم الصمت قبل أن تخطو الخطوة الأولى . وأخيراً ها أنت تنطلق في السير فوق الروابى البيضاء الفرحة بإطلاق الحملان فوقها في الربيع وبازدهار الزهور البرية المتناثرة وكأنها مشيمة الجنين .

تنطلق في خط مستقيم مثلما تفعل دائماً من الفتحة الصغيرة في سور الشجيرات الشوكية التي تحدد المكان غرباً . انطلاقاً من هذه النقطة عند الروابى البيضاء يلزمك عادة ألف وثمانمائة إلى ألفين خطوة طبقاً لحالة مزاجك وحالة الأرض تحت قدميك . ولكن في ذلك الصباح كان يلزمك أكثر من ذلك بكثير . أكثر بكثير جداً . إن ذلك الخط المستقيم شىء معتاد جداً تحت قدميك ، حتى أن قدميك بإمكانها السير إذا دعت الحاجة لذلك وأنت مغمض العينين دون أى خطأ حتى نقطة النهاية مع بعض الخطوات الزائدة ناحية الشمال أو الجنوب . إن ذلك ليس ضرورياً بالمرة إلا فى داخلك، وهذا ما تفعله قدماك وليس هنا فقط. ثم إنك تسير دائماً وكأنك مغمض العينين طالما أنك تركز عينيك على قدميك وعلى الطريق أمامك . وهذا كل ما تراه من الطبيعة حولك ، وذلك منذ اليوم الذى حنيت فيه رأسك نهائياً .

الأرض تهرب منك تحت قدميك ، وأنت لا تعد خطواتك أو تحسبها لسبب بسيط جداً هو أنك تصل يومياً إلى نفس العدد ، ومتوسط الرقم لا يتغير من يوم لآخر طالما أن الطريق هو نفسه لا يتغير . ولكنك تأخذ

عدد الأيام فى الاعتبار وكل عشرة أيام تقوم بعملية ضرب ثم تجمع الأعداد . لم يعد ظل أببك يتبعك لقد تخلى عنك منذ أمد بعيد . أنت لم تعد تسمع خطواتك دون أن تسمع أو ترى تستمر فى السير . يوماً بعد يوم . نفس الطريق . وكأنما ليس هناك طريق غيره . بالنسبة لك ليس هناك طريق آخر .

فيما مضى لم تكن تتوقف إلا لتختم العد والحساب حتى تستطيع أن تنطلق من الصفر من جديد . ولكن تلك الحاجة قد ألفت وكذلك الحاجة إلى التوقف ألفت هى أيضاً نظرياً ، إلا فقط فى نهاية الممر حين تستعد للعودة . وبالرغم من ذلك فإنك تتوقف . على عكس ما كنت تفعل فيما مضى . ليس بسبب الإرهاق ، إنك لست مرهقاً الآن أكثر من أى وقت . وليس أيضاً بسبب الشيخوخة . إنك لست شيخاً الآن أكثر من أى وقت مضى ، ومع ذلك فإنك تتوقف على عكس ما كنت تفعل فيما مضى . لدرجة أن نفس مسافة مائة متر التى كنت تقطعها فيما مضى فى ثلاث أو أربع دقائق تقطعها الآن فى خمسة عشر أو عشرين دقيقة . إن قدمك تسقط تلقائياً فى نصف الخطوة أو حينما يجب عليها أن تنطلق تتوقف القدم وكأنها ملتصقة بالأرض وكل الجسد واقف . ضيق لا يمكن التعبير عنه أو وصفه ، ولكن الأهم من ذلك هل تستطيع قدماك أن تتقدمان أكثر من ذلك ؟ أو بالأحرى ، هل ستذهبان أبعد من ذلك ؟ أقل ما يجب أنت ممدد فى الظلام مغمض العينين وترى المشهد . بينما لم يكن باستطاعتك ذلك فى حينه . قبة السماء المظلمة ، والأرض الناصعة البياض وأنت واقف بلا حراك فى الوسط ، والشجيرات الصغيرة ترزخ

تحت الجليد . وذيل المعطف ينسدل فوق الجليد ، وتحت القبعة القديمة  
الرأس المملوءة بالهموم تنحنى فى صمت . فى وسط الروابى البيضاء  
وفى نصف الطريق من فتحة السور . ذلك الخط المستقيم . إنك تنظر  
وراءك ولكنك لم تكن تستطيع أن تفعل ذلك فى حينه فترى موقع اقدامك  
وأثارها دائرة كبيرة فى عكس اتجاه عقارب الساعة مثلما فى جهنم .  
وكأنما أصبح القلب فجأة ثقيلاً جداً . فى النهاية ، ثقيل جداً .  
فى عز الشباب . لنتخيل نموذجاً من فوحان رائحة كريهة وأنت ممدد  
على ظهرك فى الظلام . تتذكر ، يوماً من أيام شهر أبريل بلا سحب .  
هى تلحق بك فى الكشك الصغير . الكشك الصغير مسدس السطوح  
ومصنوع من أغصان شجر الأرزية وشجر الصنوبر . محيط الكشك  
متران والطول ثلاثة والمساحة الأرضية ثلاثة متر مربع ، للكشك نافذتان  
متقابلتان متعددة الألوان ذات زجاج مربع ولكل نافذة إطار . والدك كان  
يحب الاختلاء بنفسه يوم الأحد فى الصيف بعد الغداء ومعه زجاجة خمر  
ووسادة . كان يجلس على إطار إحدى النافذتين بعد أن يفتح حزام  
سرواله ويقرب فى صفحات كتاب ، بينما تجلس أنت قبالة على إطار  
النافذة الأخرى وساقاك فى الهواء . وكلما سعل أو همهم تحاول أنت  
أيضاً أن تسعل أو تههم وعندما يموت سعاله يموت سعالك أنت أيضاً .  
كان ذلك يسره ، ويسعده جداً أنك تحاول تقليده وتقليد سعاله وكان  
أحياناً يصطنع السعال ليسمعك وأنت تحاول السعال مثله . ومن حين  
لآخر كنت تستدير وتنظر من خلال مربع زجاجى وردى ، تلصق  
أنفك الصغير فوق الزجاج الوردى وترى الخارج وردى . هربت السنوات

وها أنت ذا فى نفس المكان مثلما فى ذلك الحين ، والأضواء التى تشبه ألوان قوس قزح تغرق المكان وعيناك مركزة على الفراغ . وهى تتأخر ، تغمض عينيك وتبدأ فى حساب حجم المكان . أنت تلجأ دائماً فى الأوقات العصبية إلى العمليات الحسابية البسيطة وكأنها مرفأ . تتوصل إلى رقم سبعة متر مكعب تقريباً . وإلى الآن وأنت فى الظلام خارج إطار الزمن تجد العزاء فى الأرقام . تفترض أن هناك إيقاع لضربات القلب وتحسب عدد دقات القلب فى اليوم الواحد ، فى الأسبوع ، فى الشهر . فى السنة . ومع الافتراض أن لكل حياة عمر محدد ولكن حتى الآن ليس لديك فى ماضيك سوى عشرة بلايين أمريكية ، فها أنت من جديد جالساً فى الكشك الصغير تحسب حجمه بالأمتار المكعبة . سبعة متر مكعب تقريباً . ولأسباب غامضة يبدو لك هذا الرقم غير معقول فتعيد الحساب من الصفر مرة أخرى . وما أن تبدأ فى إعادة الحساب حتى تسمع وقع أقدامها الرقيقة . رقيقة بالنسبة لامرأة فى حجمها . تفتح عينيك وأنت تسمع دقات قلبك وبعد لحظة بدت لا منتهية، ظهر وجهها فى النافذة . بدأ شحوب وجهها أزرق تماماً من المكان الذى أنت فيه وأنت معجب جداً بهذه الزرقة الطبيعية وكذلك هى ترى شحوب وجهك من المكان الذى هى فيه أزرق أيضاً . إن هذا الشحوب الطبيعى صفة مشتركة بينكما . الشفاه القرمزية لا تعكس ابتسامتك ، وبما أن تلك النافذة توجد فى نفس مستوى عينيك وأنت تنظر إليها من مكانك هذا ومن ناحية أخرى فإن أرضية الكشك فى نفس مستوى سطح الأرض الخارجى فإنك لا تستطيع أن تمنع نفسك من التساؤل إذا لم



تكن هي قد ركعت فوق ركبتيها . أنت تعرف مسبقاً وعن تجربة أن طول قامتكما الواحدة تقريباً ما هي إلا حصيلة أجزاء متساوية ، لأنكما عندما تكونان متواجهين سواء في وضع الوقوف أو في وضع النوم فإنكما تكونان مقابلين وجها لوجه ، فتتلامس ركبتيكما وكذلك العانة وحتى شعر الرأس تتشابك خصلاته . فهل يمكن أن نتوصل إلى خلاصة أن فقدان القامة بالنسبة للجسد الجالس يكون بنفس النسبة للراكع على ركبتيه ؟ هنا تغمض عينيك حتى تستطيع أن تراجع الحساب شفهيّاً وتقارن الأجزاء الأولى والثانية أي المسافة من بطن القدم إلى مفصل الركبة ومن الركبة حتى حزام الحوض . كم كنت مولعاً بالحساب ، يقظاً وأنت مغمض العينين ليلاً أو نهاراً . في ذلك الظلام التام ، ذلك الضوء بلا ظلال . لتبتعد فقط . أو ربما لشأن مثل ذلك الشأن حينئذ . أمامك الساق بأكملها . تفرق أجزاءها وتضعها جنباً إلى جنب . وكأن لديك بعض الشك . الجزء الأعلى أطول وبالتالي فإن الجالس يخسر في طول القامة عندما يكون المقعد في مستوى الركبة . هنا تترك الأجزاء وتفتح عينيك فتجدها جالسة أمامك . صمت . الشفاه القرمزية لا تعكس ابتسامتك . نظراتك تسقط فوق صدرها . أنت لا تذكر أنك رأيت صدرها أبداً بهذا الامتلاء . ثم تسقط نحو بطنها ولديك نفس الإحساس . إن بطنها ممتلئ مثل بطن أبيك المنبعج من فتحة الحزام المفكوك . هل هي حامل حتى قبل أن تطلب يدها ؟ تنغلق أنت على نفسك . وهي أيضاً رغماً عنك أغمضت عينيها . ها أنتما جالسان في الكشك الصغير في هذا الضوء الذي يشبه ألوان قوس قزح في هذا الصمت .

أفرغه فقدان الخيال فأوقف كل شيء وكل شيء توقف . حتى انتابته من جديد الرغبة فى الصحبة ، حينئذ عاد لينادى على السامع بحرف "م" الميم على الأقل . وذلك لتسهيل التعارف . أو حتى ينادى عليه بحرف آخر حرف "و" لتتخيل كل ذلك وحتى هو نفسه كان داخل الإطار لينعم بالصحبة . فى نفس الظلام حيث يوجد "م" حسب أحدث المعلومات، لم نتخيل بعد الوضع الذى سيكون عليه وهل سيكون ثابتاً أم متحركاً . وعندما يتحدث عن نفسه، يقول أيضاً فى المرة الأخيرة التى تحدث فيها عن نفسه كانت عندما قال لنفسه فى نفس الظلام من خياله ، وليس فى ظلام آخر كما كان مقترحاً من قبل . فى نفس الظلام ، ولكن كان على استعداد أكثر لينعم بالصحبة . ولم يبق سوى أن نتخيل الوضع الذى سيكون عليه ، وهل سيكون ثابتاً أم متحركاً . أى وضع من جميع الأوضاع التى يمكن أن نتخيلها ، لن يكون حملاً على المدى الطويل ؟ أى وضع سواء الثابت أو المتحرك سيكون الأكثر ترفيهاً على المدى الطويل؟ وفى نفس الوقت على وتيرة واحدة . الوقت مبكر لمعرفة ذلك ، ولماذا لا نقول منذ الآن ما سنقولُه ونعيده بعد ذلك. إن ذلك غير ممكن . وماذا بعد ؟ هل يمكننا الآن إذا ارتأى هو ، أن ذلك أنسب له أن ننسحب من الظلام الذى استحسنه هو حسب أحدث المعلومات المتوفرة والذهاب إلى ظلام آخر مختلف تماماً عن خياله ؟ إذا قرر هو الآن أن يمدد محتضراً حتى وإن عاد وندم على ذلك فيما بعد ، فهل يستطيع مثلاً أن ينهض واقفاً أو أن يستند على جدار أو أن يخطو زهاباً وإياباً ؟ هل سيتخيل "م" نفسه من جديد فى أغنية لتتويم الأطفال ؟ هل نستطيع أن نذهب لنجدته بلا قيد ؟ هنا فى نفس الظلام من خياله ، يغادره بلا استئذان متخبطاً فى حيرته ، وهل يتساءل فى أعماقه - كما هى عادته دائماً - عما إذا كانت هموم الدنيا لا تزال كما كانت على أيامه .

حتى الآن "م" على تلك الحال . هو ممدد فى مكان مظلم . لم نتخيل بعد شكل أو مقاييس المكان . هو يسمع بوتيرة متقطعة صوتاً ويتساءل أحياناً إذا كان هذا الصوت يخاطبه هو أم شخص آخر متواجد فى نفس المكان . طالما أن لا شىء يؤكد عندما يصف الصوت بكل مصداقية الوضع الذى هو عليه ، إن ذلك الوصف ليس لصالح شخص آخر متواجد فى نفس الوضع ، ولكن هذه الشكوك تتلاشى رويداً رويداً عندما ينفلق الصوت عليه بدلاً من أن يتناثر فى جميع أنحاء الغرفة . وعندما يصمت الصوت لا يُسمع إلا تنفسه هو وعندما يطول صمت الصوت يولد الأمل بأنه سيصمت إلى الأبد . ولكن هذا النشاط الفكرى عادى جداً ، وسرعان ما ينطفئ الشعاع النادر للتعقل . الأمل واليأس مفهومان مترادفان نكتفى بذكرهما هنا الواحد تلو الآخر ، أما عن مراجع وأصول وضعه الراهن فليس هناك أى توضيح . لا يوجد ما يجعلنا نقرب من ذلك الحين أو من الآن . فقط الجفون تتحرك ، عندما تمل العين الظلام فى الخارج وفى الداخل فإن الجفون تنفلق ثم تنفتح بعد ذلك . لم يخمد الأمل فى وجود حركات صغيرة أخرى ، ولكن لا توجد أية حركة يمكن ملاحظتها حتى الآن ، أو على مستوى أكثر أهمية لصالح الصحبة لا توجد حركة حزن مستمر مثلاً أو شهوة ما أن ندم أو فضول أو غضب أو أى شىء من هذا القبيل أو أية حركة فكرية أو ذهنية موفق إلى حد ما حتى يستطيع أن يذكره وهو يتحدث عن نفسه ، طالما أنه لا يستطيع أن ينكر أنه يتراجع . ماذا يبقى لإضافته لهذا الرسم التخطيطى ؟ إنه متعذر تسميته . حتى "م" يجب أن يسقط أما "و" فإنه يستعيد خياله مثلما تخيله حتى الآن "و" ولكن هو نفسه خيال سراب .

إذن شخص آخر مرة أخرى . لاشيء منه . سراب . يتخيل سراباً  
ليحد من عدمه . لنتحرك بسرعة . لحظة لهفة فيما عدا هو . بسرعة ،  
لنتحرك بسرعة ، بسرعة . لتخيل متخيل يتخيل كل ذلك لينعم بالصُّحبة  
 . فى نفس الظلام السرابى مثل سراباته الأخرى ولكن فى أى وضع .  
وهل فى نفس وضع السامع نعم أم لا وهو فى وضعه لم يستقر بعد على  
وضع نهائى . ألا يكفى أن يكون هناك واحد فقط بلا حراك ؟ ما جدوى  
أن يكون هناك اثنان بلا حراك ؟ إذن فليتحرك بإعتدال على أربع . زحف  
معتدلاً . صدره بعيداً عن الأرض وعينه فى وضع المراقبة فى اتجاه  
السير إن لم يكن ذلك خيراً من لاشيء فلنلغى كل شيء إن أمكن وفى  
الفراغ نجد حركة أخرى أو لا حركة بالمرّة . لم يبق إذن إلا أن نتخيل  
الوضع الأكثر ملائمة . ولكن فى الوقت الحاضر ليكتفى بالزحف .  
يزحف ويسقط . يزحف من جديد ثم يسقط من جديد . فى نفس الظلام  
السرابى مثل سراباته الأخرى .

بعد أن تاه . لمدة طويلة وكأنه ضائع استرجع الصوت مكانه وضعفه  
النهائى . ولكن أين مكانه ؟ لتخيل ولكن بحذر .

فوق الوجه المقلوب عمودياً فى اتجاه مؤخرة الرأس والجمجمة ، وعلى  
ضوء النور المنبعث منه إن كان هناك فم فإنه لن يراه . مهما أدار عينيه  
فى يأس . ما مدى الارتفاع عن الأرض ؟ طول ذراع . قوة ؟ ضعف .  
تماماً مثل أم تنحنى من الخلف فوق المهد لتفسح المكان للأب ليرى وهو  
بدوره يهمس للمولود بنبرة متبادلة باهتة لا أثر للحب .

أنت ممدد على ظهرك تحت جذع شجرة حور فى ظلها المرتعش .  
وهى نائمة بزاوية قائمة ومنتكئة هى على كوعها . وعيونك مغمضة بعد  
أن غاصت فى عيونها . وفى الظلام تغوص عينك فى عينيها مرة أخرى  
، وتشعر بخصلات شعرها الطويل الأسود تتحرك فوق وجهك مع  
النسمات التى لا تتحرك ، وتحت الغطاء من الشعر الطويل تختفى  
وجوهكما . وهى تهمس ، استمع إلى الأوراق . وانتما تسمعان أصوات  
الأوراق والعين فى العين . تحت الظلال المرتعشة .

يزحف إذن ثم يسقط . يزحف من جديد ويسقط أيضاً من جديد .  
وإذا كان ذلك لا يضيف شيئاً بتاتاً فى نهاية الأمر فليسقط إذن لآخر  
مرة . أو أنه لم ينتحب أبداً على ركبتيه ، لتخيل كيف يمكن أن يستفيد  
الصوت بأى طريقة من هذا الزحف ليعتدل من الخلف إلى الأمام ،  
أول كل شىء ما هى وحدة القياس فى الزحف ؟ إنها توازى خطوة  
المتنزه على قدميه . إنه ينتصب على أربع ويستعد للتقدم . يداه وركبته  
ترتكزان فوق زوايا مستطيل طوله قدمان وعرضه حسب الطلب . وأخيراً  
تتحرك الركبة اليمنى وتتقدم . لنقل تتقدم لمسافة ست بوصات وتقل  
المسافة بينها وبين اليد اليمنى بقيمة الربع . وهذه الأخيرة بدورها تتقدم  
بنفس المسافة فى الوقت المناسب . وهكذا يتحول المستطيل إلى مُعَيَّن .

ولكن لن يستمر ذلك إلا الوقت الضرورى اللازم للركبة واليد اليسرى  
لتقوموا بنفس الشىء ، ثم يعود المستطيل من جديد . وهكذا دواليك إلى  
أن يسقط . هذا ما يسمى بالهملجة عند الزواحف والدواب إذ ترفع معا

القائمتين اللتين من جهة واحدة . وهذا الوضع فى السير هو أقل الأوضاع انتشاراً عندها . إذن هو الوضع المسلى أكثر .

وهو مستمر فى الزحف مستمر فى الحساب الشفهى . يعد حبة حبة فى رأسه . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، واحد . ركلة . يد . يد . اثنان . قدم . إلى أن يسقط بعد خمسة . ثم بعد ذلك يعود من جديد إلى نقطة الصفر . واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، واحد . ركلة . يد . ركلة ، يد ، اثنان ، ستة . ويستمر هكذا . فى خط مستقيم بقدر المستطاع . وبما أنه لم يعترضه عوائق فإنه يعود أدراجه . ويصل إلى الصفر من جديد . يأخذ اتجاهها آخر مختلفاً . يستمر بلا توقف ويبذل أقصى ما فى طاقاته . وهنا أيضاً ينتهى به الأمر إلى تغيير الاتجاه دون أن يصل إلى نهاية المطاف يعود من جديد إلى الصفر . وهو يعرف تماماً إلى أى مدى يمكن للظلام أن يضلّه فى عكس اتجاه عقارب الساعة بسبب القلب - تماماً - مثلما يحدث فى جهنم . أو على العكس تحويل القطع الإهليجى الشكل إلى زاوية مستقيمة الضلعين . مهما كان الأمر فإنه قوى البنية ويستمر فى الزحف بلا معالم على الطريق حتى الآن . ركلة ، يد . ركلة يد . فى الظلام بلا معالم .

هل من المعقول أن نتخيل السامع فى حالة من الخمول ذهنى الكامل ؟ فيما عدا فى تلك اللحظات التى يسمع فيها أى فى الأوقات التى يصبح خلالها مسموعاً . فماذا بوسعه أن يسمع فيما عدا الصوت وتنفسه هو ؟ أه ، هناك أيضاً الزحف . فهل يسمع الزحف والسقوط ؟

وما هي المساهمة في الصحبة إذا كان بوسعه أن يسمع الزحف ؟  
السقوط ، العودة إلى السير على أربع ، العودة إلى الزحف . وهو  
يتساءل ، يا إلهي ماذا يمكن أن تكون هذه الأصوات ؟ وماذا تعني ؟  
لنترك ذلك إلى فيما بعد أكثر فراغا . وفيما عدا الصوت ماذا يمكن أن  
ينشط ذهنه ؟ الرؤية ؟ كيف لا يمكن التأكيد على أنه لا يوجد شيء يمكن  
أن يراه ؟ فات الألوان الآن وطالما أنه يلاحظ تغييراً في الظلام عندما  
يغمض عينيه أو يفتحها . وطالما إنه يلمح مبدئياً النور البسيط الذي  
ينشره الصوت مثلما تخيلناه تخيلناه بسرعة ، نور بسيط جداً طالما أن  
الصوت مجرد مهمة فلنتفق على ذلك . هكذا نرى أن العيون كانت منذ  
بداية الربع الأول من الكلمة . مع الافتراض أن العيون كانت مفتوحة في  
ذلك الوقت ، إلى درجة أن ذلك النور البسيط جداً الكائن أخيراً لم يكن  
ولم يلمح إلا خلال نصف غمضة عين ، وماذا عن حاسة الذوق ؟ حاسة  
الذوق في فمه ؟ انتهت منذ زمن بعيد .

دفع الأرض لهيكله العظمي ؟ من أعلى الرأس إلى أخمص القدم .  
من عظمة كعب القدم إلى عظمة وسط الجمجمة . ألا يمكن أن تنتابه  
رغبة في التحرك فتكسر خموله ؟ تجعله يقع على بطنه ؟ أو على جنبه ؟  
رغبة في التغيير ، ليس إلا . ليمح إذن هذا القدر القليل جداً من الحاجة .  
وفي نفس الوقت يُمنح السعادة حين يعلم إذن ذلك العهد الذي كان  
بوسعه أن يتلوى فيه بكل حرية قد انقضى . وماذا عن حاسة الشم ؟  
رائحته هو ؟ انتهت منذ زمن بعيد . لم يعد يشم روائح أخرى حتى وإن

وُجِدَت مثلاً رائحة فأر ميت منذ مدة طويلة ، كما حدث فى وقت ما أو جيفه أخرى من هذا النوع ، يمكن أن نتخيلها فيما بعد .

إلا إذا استطاع الزاحف أن يشم . آه ، الزاحف المتخيل . هل من المعقول أن نتخيل أن الزاحف وهو يزحف يمكن أن يشم ؟ أن يشم بقوة أكثر من خياله . وأن يجعل أيضاً هذا الذهن الخامل يندهش ، هذا الذهن المغلق دون الدهشة أن يندهش من هذه الرائحة الأجنبية الغريبة . لمن أو من أين يا إلهى هذه الروائح الكريهة ؟ إنه سيكسب رقيقاً إذا كان بوسع خياله أن يشم إذا كان بوسعه فقط أن يشم خياله ربما يحتاج لحاسة سادسة .

إحساس غريب غامض بأن كارثة على وشك الوقوع ؟ نعم أم لا ؟ لا .  
مجرد تفكير عاقل ؟ بون التجربة .  
الله محبة . نعم أم لا ؟ لا .

الخيال الزاحف فى نفس الظلام هل بوسعه أن يتخيل مثل خياله وهو يزحف ؟ كان يسأل نفسه هذا السؤال من بين أسئلة أخرى وهو ممدد فيما بين زحفة وأخرى . وإذا كانت الإجابة الواضحة قد خطرت على باله ورسخت فى ذهنه إلا أن الإجابة الأكثر صلاحية لم تكن بذلك الوضوح واستدعى الأمر أن يقوم بعدة زحفات وعدة ركعات قبل أن يتوصل إلي تخيل يصلح لهذا الأمر ، وأن يضيف عدة تنهدات على نفس الوتيرة بأنه لا يوجد هناك إجابة مقدسة . ومهما حدث فإن الإجابة التى اختارها فى النهاية كانت إجابة نافية . لا لم يكن ذلك بوسعه ، إنه لأمر فى غاية



الجدية أن يزحف فى الظلام بالطريقة التى تخيلناها وهى طريقة تستأثر  
بالإنسان فلا يستطيع أن يقوم بأى نشاط آخر حتى مجرد تشيئه أى  
شئ من العدم . فقد كان لزاما عليه أن يسير بهذه الطريقة الخاصة  
جداً والتى تخيلناها بسرعة شديدة ليس هذا فقط بل أن يسير فى خط  
مستقيم بقدر الإمكان أيضاً ، وبالإضافة إلى ذلك كان عليه أن يستمر  
فى الحساب والعد وهو سائر وكلما أضاف نصف قدم إلى نصف قدم  
حفظ فى ذاكرته الإجمالى المتغير دوماً للإعداد المختزنة السابقة . وفى  
نهاية الأمر كان لزاما عليه أيضاً أن يجعل عينيه وأذنيه على أهبة  
الإستعداد لتلقى أية إشارة تساعد على تحديد المكان الذى وضعه فيه  
خياله بسرعة كبيرة . كل ذلك وهو يعانى من خيال مصاب بنوع من  
التعقل كما يجب عدم إغفال طبيعة تخيلاته التى يمكن الرجوع فيها ، كل  
ذلك جعله يجيب بالنفى بأنه لا يستطيع ذلك . إنه لا يستطيع منطقياً أن  
يتخيل وهو يزحف فى نفس الظلام الذى تخيله خياله .

إضراب فى الليل ، الضوء يموت ، إنعدام الضوء وماله أن يموت بعد  
لا . لا يمكن أن يموت طالما أنه ليس هناك ضوء . كان الضوء يحتضر  
حتى الفجر دون أن يموت .

أنت واقف وظهرك للبحر . ولا صوت هناك إلا صوتها . يخفت أكثر  
فأكثر كلما ابتعدت بهدوء . ثم يعود بهدوء مع عودتها بهدوء . وأنت  
تستند على عصا طويلة . ويداك ترتكزان على مقبض العصا ورأسك  
ترتكز على يديك وعيناك لو فتحتهما لرأتا فى أول الأمر بعيداً عن ضوء

آخر شعاع للشمس ذيل معطفك الطويل وكعب حذائك منغرساً في الرمال . ثم فقط ظل عصاك قبل أن يختفى ، وذلك قبل أن يختفى من فوق الرمال ، قبل أن يختفى عن ناظريك ليلة بلا قمر وبلا نجوم إذا فتحت عينيك فإن الظلام سينقشع .

ازحف ثم اسقط . تمدد وتنهد وأنت مغمض العينين في الظلام . واعد الكرة . الإحباط الجسدى بعد أن زحفت بلا نتيجة . وربما تتساءل ، فى نهاية الأمر ما جدوى الزحف ؟ لماذا لا أكتفى بالتمدد فى الظلام وأنا مغمض العينين وأهجر كل شىء . وانتهى مع كل شىء ، انتهى من الزحف الساخر ومن السراب الفانى . ولكن عندما يفقد الشجاعة هكذا لا يستمر طويلاً على تلك الحال . فسرعان ما يمتلأ قلبه المنهار بالرغبة فى التمتع بالصحبة وأن يهرب من صحبة نفسه ، حاجته إلى سماع ذلك الصوت من جديد . حتى وإن يكن مجرد أن يقول من جديد ، أنت ممدد على ظهرك فى الظلام . أو حتى وأن رأيت عيناك النور لأول مرة فى مساء ذلك اليوم الذى صرخ فيه المسيح فى الساعة التاسعة تحت السماء المظلمة قبل أن يموت . الحاجة للإنصات أكثر لرؤية ذلك النور المشع وأنت مغمض العينين . أو مع إضافة قليل من الضعف البشرى لتطویر السامع - تماماً - مثل الشعور بالأكلان مثلاً فى منطقة من اليد لا يمكن حكها أو ربما يمكن حكها ولكن اليد تكون جامدة بلا حراك . أكلان لا يمكن حكه . أية مساهمة فى الصحبة تلك ؟ أو فى نهاية الأمر السؤال الذى يطرح نفسه لمعرفة ما يسمع بالضبط وهو يتحدث عن

نفسه مع الإشارة الغامضة بأنه ممدد . وهى بكلمات أخرى ومن بين جميع طرق وأساليب التمدد تعتبر أفضل طريقة تنال الإعجاب والاستحسان على المدى البعيد ؟ وإذا كان قد زحف بالطريقة التى تم تحديدها ثم سقط فإنه من البديهي سقط ووجهه إلى أسفل فى اتجاه الأرض مع الأخذ فى الاعتبار مدى التعب والزهق وهو الشعور الذى انتابه فى تلك اللحظة فإنه يكون من الصعب أن يحدث غير ذلك . ولكن بعد أن انبطح هكذا فلا شئ يمنع سقوطه على أحد جنبيه أو على ظهره الوحيد ثم يستمر ممدداً إذا كان وضع من تلك الأوضاع الثلاثة أكثر تسلية من غيره من بين الأوضاع الثلاثة ، يجب إقصاء الوضع على الظهر بالرغم من أنه وضع مفر ، لأن ذلك الوضع هو الذى اختاره السامع من قبل . أما بالنسبة للوضعين الآخرين على الجنب الأيسر أو الأيمن فأقصائهما ملزم من النظرة الأولى . لا يتبقى إذن إلا وضع الإنبطاح . ولكن كيف ؟ ينبطح كيف ؟ كيف يصنع ساقيه ؟ وساعديه ؟ ورأسه ؟ وهو منبطح فى الظلام ويناضل كى يرى كيف يمكنه أن يختار أفضل وضع للإنبطاح . كيف ينعم بالصحبة أفضل وهو منبطح .

يلزم الأمر تحديد صور السامع من بين جميع الأوضاع على الظهر ما هو أنسب وضع لا يؤدى إلى الملل على المدى الطويل ؟ مغمض العينين ومنبطح فى الظلام انتهى به الأمر إلى فتح عينيه ببطئ ليرى ما حوله . ولكن وقبل كل شئ هل هو عار أم مغطى ؟ ولا حتى غطاء بسيط مثل المنشفة . عارياً . منظر هذا اللحم الأبيض فى

لون العظم فى النور المنبعث من الصوت ، تلك هى الصحبة . رأسه مستندة على العظم القزالي لمؤخرة الرأس . الساقان ملتصقتان فى وضع مستقيم ، القدمان منفرجتان على شكل زاوية قائمة ، اليدان وحولهما الأغلال غير المرئية مضموتين فوق العانة . هناك تفاصيل أخرى حسب الطوارئ . لنتركه هكذا فى الوقت الراهن .

بالرغم من كل الهموم البشرية التي طرحتك أرضاً إلا أنك ترفع رأسك مستنداً على كفيك وتفتح عينيك ، وبدون أن تتحرك من مكانك تبعث الضوء فوق رأسك . تفتح عينك على الساعة فى مستوى نظرك . ولكن بدلاً من أن تقرأ الوقت وتعرف كم كانت الساعة فى جوف تلك الليلة فإن عينيك تتعلقان بحركة دوران عقرب الثوانى وظله الذى يسبقه أحيانا ، وأحيانا أخرى يتقدمه وبعد عدة ساعات يبدو لك هكذا ، يختفى ظل عقرب الثوانى تحت العقرب عند الوصول إلى ٦٠ ثانية و٣٠ ثانية ومن ٦٠ إلى ٣٠ يتقدم الظل العقرب بمسافة تتزايد من صفر إلى ٦٠ وتصل إلى ذروتها عند ١٥ ومن هنا تبدأ تنقص حتى تصل إلى الصفر ومنه إلى ٣٠ ومن ٣٠ إلى ٦٠ يتبع الظل عقرب الثوانى بمسافة تتزايد من صفر إلى ٣٠ وتصل إلى ذروتها عند ٤٥ . ومن هنا يبدأ التناقص حتى تصل إلى الصفر ومنه إلى ٦٠ . أما الآن فإنك تغير اتجاه الضوء فوق الساعة فيتحرك الضوء وتتحرك الساعة سواء من جانب أو من جانب آخر فيختفى بذلك الظل تحت العقرب عند نقطتين مثلاً عند ٥٠ وعند ٢٠ . وربما عند أية نقطتين أخريين طبقاً لزاوية الانحراف ، ومهما كانت

الزاوية وأخذ في الاعتبار الفرق بين النقاط الأولى والنقاط الثانية عند اختلاف الظل فإنه الفرق دائماً ٣٠ ثانية . إن الظل ينبعث من تحت عقرب الثواني عند أية نقطة خلال دورانه سواء كان يتبع العقرب أو يسبقه لمسافة ٣٠ ثانية ، ثم يختفى الظل من جديد لمدة من الثواني أقل من أن تحسب قبل أن ينبثق من جديد ليتبع العقرب أو يسبقه . وهكذا دواليك دون هدنة ، ومن الواضح أن ذلك هو الشيء الثابت الوحيد ، لأن حتى المسافة بين عقرب الثواني وظله تتغير هي أيضاً طبقاً لزاوية الانحراف . ولكن مهما كانت زاوية الإنحراف فإن المسافة تتزايد وتتناقص بلا تغيير من الصفر إلى ذروتها بعد ١٥ ثانية ثم ١٥ ثانية من جديد وحتى الصفر على التوالي . وهكذا دواليك بدون هدنة . وهذا شيء ثابت آخر أيضاً كان بوسعك أن تراقب بطريقة أفضل وتمعن في مراقبة عقرب الثواني وظله في دورتهما الموازية لا هدنة حول إطار الساعة والتي ينتج عنها متغيرات وثوابت ، كي تقوم بتعديل وتصحيح بعض الأخطاء المحتمل حدوثها في المعلومات المتوفرة لديك حتى الآن ولكن لم يعد بوسعك أن تحتل أكثر من ذلك فتترك رأسك تسقط في وضعها السابق وتعود عينك المغمضتان إلى الهموم البشرية . ويبزغ الفجر عليك وأنت دائماً في ذلك الوضع نور الشمس ، يدخل من النافذة ومن ناحية البحر فيضيء عليك نوراً وسرعان ما يمتد ظلك وظل المصباح المضيء دائماً فوق رأسك وظل بعض الأشياء الأخرى أيضاً على أرضية المكان .

ما تلك التخيلات الضوئية في الظلام ! من الذي يتعجب هكذا ؟ من

الذى يسأل عن يتعجب . ما تلك التخيلات الضوئية فى الظلام بدون ظل للضوء ولا للظل . هناك شخص آخر من جديد ؟ لتخيل كل ذلك لننعم بالصحة . أية مساهمة فى الصحة تلك ؟ شخص آخر مرة أخرى ، لتخيل ذلك لنغم بالصحة . لتتحرك بسرعة . بسرعة .

وحتى نصل إلي حل وبأى ثمن وبأية طريقة كانت ، فإنك عندما كنت لا تستطيع الخروج كنت تجلس القرفصاء فى الظلام . لقد سرت منذ بدأت تخطو خطواتك الأولى مسافة ثلاثين ألف قدم أى تقريباً ثلاث مرات الدورة . ولم تنجح أبداً فى أن تتخطى شعاعاً واحد من بؤرة النار ! بؤرتك فى النار ، هكذا كان يقف عازف القيثارة العجوز فى انتظار التكفير عن الذنوب والذى نجح فى أن ينتزع من دانتى أول ربع ابتسامة ، ربما فى ركن ما منعزل من الجنة . فى جميع الأحوال لمن الوداع فى هذا المكان . المكان بلا نافذة . عندما تفتح عينيك يخف الظلام وينقشع . أنت الآن ممدد على ظهرك فى الظلام وكنت فيما مضى تجلس القرفصاء . لقد أعلمك جسدك أنه لم يعد بوسعه أن يخرج ، لم يعد بوسعه أن يسير ويخترق الطرق الصغيرة الملتوية وسط الروابي فى الريف والمراعى الشاسعة الممتلئة أحياناً بقطعان من الأغنام فتجعلها مبهجة وأحياناً أخرى تكون فارغة وموحشة .

لسنوات طوال صاحبك ظل والدك وبقي بجوارك مرتدياً البدلة الرسمية القديمة لموظفى هيئة السكن الحديدية ثم بعد ذلك ظلت لسنوات طوال وحيداً . وكنت تضيف إلى مجموع خطواتك السابقة خطوة خطوة

ما تقوم به من خطوات فيتزايد المجموع وكنت تتوقف من حين لآخر ورأسك منحنية لتحديد الإجمالى النهائي ، ثم تعاود السير بدءاً من الصفر من جديد وأنت جالس القرفصاء هكذا تتخيل أنك لم تعد وحدك بالرغم إنك تعرف جيداً أنه لم يحدث أى شىء يجعل ذلك ممكناً . وتستمر المبادرة وهى محاطة بعدم معقوليتها . وأنت لا تهمس لنفسك كلمة كلمة ، وأعرف أن مصيرى الفشل فى كل ما أفعله حالياً ومع ذلك فأنا مصر على الاستمرار . لا . لأن ضمير المتكلم سواء المفرد أو بالأحرى وربما من الأجدر أن ضمير المتكلم الجمع من الصيغ التى لا تدخل أبداً فى أسلوب تعبيرك . ولكنك تراقب نفسك فى صمت مثلما تراقب شخصاً لا تعرفه ، مصاب بمرض ما ، لنقل مصاب بمرض "هود جكين" أو ربما أفضل مصاب بمرض "بارسيفال بوت" ، والذي ضبط وهو متلبساً بالصلاة . من حين لآخر تتمدد فى رشاقة غير متوقعة ومن ثم فإن الأجزاء المختلفة تتحرك . اليدان تنفكان عن الركبتين ، والرأس ترتفع ، والسيقان تفك ثنيتها ، ويرجع الجذع للوراء وجميعها مع أجزاء أخرى أيضاً بدون عدد تستمر فى تحركها بالتعاقب حتى تصل إلى أقصى مدى . ثم تثبت بلا حراك فى نفس الوقت معاً . والآن وأنت على ظهرك تستعيد حكايتك من حيث توقفت عندما بدأت حركة التمديد . واستمرت حتى وصلت إلى العملية المضادة ثم توقفت من جديد . وهكذا وأنت على ظهرك فى الظلام أحياناً فى وضع القرفصاء وأحياناً وأنت ممدد تتألم بلا جدوى . ويتم الانتقال فى الوضع الأول إلى الوضع الثانى

بسهولة أكثر مع مرور الوقت وعن طيب خاطر أيضاً والعكس بالعكس .  
لدرجة أن التمديد الذي كان فيما مضى يأتي بالصدفة أو بالاتفاق  
أصبح الآن هو الوضع المعتاد أو في النهاية القاعدة . أنت الآن ممدد  
على ظهرك في الظلام ولن تجلس أبداً على مؤخرتك وتضغط ساقيك  
وتلصقهما ببعضهما بساعديك وتخضع رأسك إلى أقصى ما تستطيع .  
ولكن وجهك المنكس نهائياً سيتألم بلا جدوى على حكايتك ، وذلك حتى  
تسمع أخيراً أن الكلمات قد وصلت إلي نهايتها . كل كلمة تفرغ من  
معناها أكثر وأكثر كلما اقتربت من آخر كلمة ، ثم تفرغ معها الحكاية .  
حكاية شخص آخر معك في الظلام . حكايتك أنت وأنت تحكى عن  
شخص آخر معك في الظلام . ومن الأفضل في النهاية وبعد حساب  
وتفكير ؟ فذلك عمل بلا طائل وأنت كما كنت دائماً وحيداً .

( انتهت )

**\*\* معرفتي \*\***

**[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)**

**منتديات مجلة الإبتسامة**



## المشروع القومي للترجمة

ت : أحمد درويش	جون كوين	اللغة العليا
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو باننيكار	الوثنية والإسلام
ت : شوقي جلال	جورج جيمس	التراث المسروق
ت : أحمد الحضري	انجا كاريتشكوفا	كيف تتم كتابة السيناريو
ت : محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	ثريا في غيبوبة
ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد	ميلكا إفييتش	اتجاهات البحث اللساني
ت : يوسف الأنطكي	لوسيان غولدمان	العلوم الإنسانية والفلسفة
ت : مصطفى ماهر	ماكس فريش	مشعلو الحرائق
ت : محمود محمد عاشور	أندروس، جودي	التغيرات البيئية
ت : محمد مقصم وعبد البطل الأزدي وعمر حلي	جيرار جينيت	خطاب الحكاية
ت : هناء عبد الفتاح	فيسوفا شيمبوريسكا	مختارات
ت : أحمد محمود	ديفيد براونستون وايرين فرانك	طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	ديانة الساميين
ت : حسن المودين	جان بيلمان نويل	التحليل النفسي والأدب
ت : أشرف رفيق عفيفي	إدوارد لويس سميث	الحركات الفنية
ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب	مارتن برنال	أثينة السوداء
ت : محمد مصطفى بدوي	فيليب لاركين	مختارات
ت : طلعت شاهين	مختارات	الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية
ت : نعيم عطية	جورج سفيريس	الأعمال الشعرية الكاملة
ت : يعنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	قصة العلم
ت : ماجدة العناني	صمد بهرنجي	خوخة وألف خوخة
ت : سيد أحمد علي الناصري	جون أنتيس	مذكرات رحالة عن المصريين
ت : سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	تجلى الجميل
ت : بكر عباس	باتريك بارندر	ظلال المستقبل
ت : إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	مشوى
ت : أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	دين مصر العام
ت : نخبة	مقالات	التنوع البشري الخلاق
ت : منى أبو سنه	جون لوك	رسالة في التسامح
ت : بدر الديب	جيمس ب. كارس	الموت والوجود
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو باننيكار	الوثنية والإسلام (ط ٢)
ت : عبد الستار الطلوجي / عبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	مصادر دراسة التاريخ الإسلامي
ت : مصطفى إبراهيم فهمي	ديفيد روس	الانقراض
ت : أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هوبكنز	التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية
ت : د. حصة إبراهيم المنيف	روجر ألز	الرواية العربية

ت : خليل كلفت	بول . ب . ديكسون	الأسطورة والحدائق
ت : حياة جاسم محمد	والاس مارتن	نظريات السرد الحديثة
ت : جمال عبد الرحيم	بريجيت شيفر	واحة سيوة وموسيقاها
ت : أنور مغيث	ألن تورين	نقد الحدائق
ت : منيرة كروان	بيتر والكوت	الإغريق والحسد
ت : محمد عيد إبراهيم	أن سكستون	قصائد حب
ت : عطف أحمد / إبراهيم قنص / محمود ملجد	بيتر جران	ما بعد المركزية الأوروبية
ت : أحمد محمود	بنجامين بارير	عالم ماك
ت : المهدي أخريف	أوكتايفو پاث	اللهب المزوج
ت : مارلين تانرس	ألدوس هكسلي	بعد عدة أصياف
ت : أحمد محمود	روبرت ج دنيا - جون ف أفين	التراث المغنور
ت : محمود السيد علي	بابلو نيرودا	عشرون قصيدة حب
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)
ت : ماهر جويجاتي	فرانسوا بومبا	حضارة مصر الفرعونية
ت : عبد الوهاب غلوب	ف . ت . نوريس	الإسلام في البلقان
ت : محمد يرانة وعثمانى الملوذ ويوسف الأنطكي	جمال الدين بن الشيخ	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير
ت : محمد أبو العطا	داريو بيانوبيا وخ . م بينياليستي	عسار الرواية الإسبانو أمريكية
ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	العلاج النفسى التديمي
ت : مرسى سعد الدين	أ . ف . ألنجتون	الدراما والتعليم
ت : محسن مصيلحي	ج . مايكل والتون	المفهوم الإغريقي للمسرح
ت : علي يوسف علي	جون بولكنجهوم	ما وراء العلم
ت : محمود علي مكي	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (١)
ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (٢)
ت : محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	مسرحيتان
ت : السيد السيد سميم	كارلوس مونيهيت	المحبرة
ت : صبرى محمد عبد الغنى	جوهانز ايتين	التصميم والشكل
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميت	موسوعة علم الإنسان
ت : محمد خير البقاعى .	رولان بارت	لذة النص
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)
ت : رمسيس عوض .	ألن وود	برتراند راسل (سيرة حياة)
ت : رمسيس عوض .	برتراند راسل	في مدح الكسل ومقالات أخرى
ت : عبد اللطيف عبد الحلیم	أنطونيو جالا	خمس مسرحيات أندلسية
ت : المهدي أخريف	فرناندو بيسوا	مختارات
ت : أشرف الصباغ	فالتين راسبوتين	نتاشا العجوز وقصص أخرى
ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين
ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشامج رودريجت	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأبنى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبينسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم السوسقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جينتز	ت : أحمد زايد ومحمد محبى الدين
وسم السيف	ميجل دى تريباس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح التجريبي بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومسئامير المسرح	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
الإسبانونأمريكى المعاصر	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
محدثات العولة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
الحب الأول والصحبة	أنطونيو بويرو بايخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
مختارات من المسرح الإسباني	قصص مختارة	ت : إيوار الخراط
ثلاث زنبقات ووردة		

## ( نحت الطبع )

المختار من نقدهات . س . إليوت	الشعر الأمريكى المعاصر
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مدخل إلى النص الجامع
تاريخ السينما العالمية	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	الشرق يصعد ثانية
أوبرا ماهرجونى	الجانب الدينى للفلسفة
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	الولاية
حروب المياه	ثقافة العولة
الأدب الأندلسى	الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها الدولية
الأدب المقارن	حيث تلتقى الأنهار
رأية التمرد	النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس
السياسة والتسامح	المدارس الجمالية الكبرى
مساعدة العولة	التحليل الموسيقى
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	الإسكندرية : تاريخ ودليل
الفجر الكاذب	

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

---

رقم الإيداع ١٥٠٥٦ / ١٩٩٨

الترقيم الدولي (3 - 079 - 305 - 977 - I. S. B. N.)



## المشروع القومي للترجمة

يعتبر صمويل بيكيت من أشهر وأكبر أدباء القرن العشرين ، وقد حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٦٩ ، كما أنه من الأدباء القلائل الذين يكتبون بلغتين في آن واحد ؛ فقد كتب معظم مؤلفاته باللغتين الإنجليزية والفرنسية .

أما كتاباته فهي تدرج تحت ما يطلق عليه أدب اللامعقول، وكذلك الأدب السوربالي والرواية الجديدة ؛ حيث يلجأ الكاتب إلى المفارقات ؛ ليؤكد على «لامعقولية» المفاهيم التي نعيش بها في الحياة دون أن نفهم أسبابها أو مبرراتها ؛ لأنها أحياناً لا يكون لها أسباب معقولة .

وقد يلجأ الكاتب أيضاً إلى أسلوب السرد بتيار الوعي وبضمير المتكلم ، ولكنه يوجه الخطاب والحديث إلى القارئ ، وأحياناً كثيرة يخرج من إطار السرد ويدخل في نقاش مع القارئ في موضوع لا يمتُّ للرواية بصلة .

بصريات



[www.ibtesama.com](http://www.ibtesama.com)